المملكة العربية السعودية

جامعة الطائف

كلية الشريعة والأنظمة

قسم القراءات

تحقيق التوازن النفسي في القرآن الكريم من خلال حديثه عن شرح الصدور وضيقها

للأستاذ الدكتور

محمد عبد الحميد علي حديفة

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الطائف والأزهر

١٤٣٧ – ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٦ – ٢٠١٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله الذي شرح صدور العابدين ، وأنزلهم نزل المقربين ، أحمده – سبحانه – حمد الشاكرين الذاكرين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة قامت بها السماوات والأرض، ولأجلها انقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكافرين، ولأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وإمامًا للمتقين ، وحجة على الخلق أجمعين ، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحابته أجمعين ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــــد

فهذا بحث بعنوان (**تحقيق التوازن النفسي في القرآن الكريم من خلال حديثه عن شرح الصدور وضيقها**) . يتكون من مقدمة وفصلين وخاتمة .

تحدثت في الفصل الأول : عن شرح صدور الأنبياء وأثر ذلك في القرآن الكريم ، وخصصت بذلك نبي الله محمد – صلى الله عليه وسلم – وموسى – عليه السلام .

وقد شرح الله صدر رسوله – صلى الله عليه وسلم – حسًا ومعنى بدون طلب لذلك ، ولكن موسى – عليه السلام – طلب من الله عز وجل أن يشرح له صدره ويعينه على أعباء الرسالة .

ثم تحدثت عن شرح صدور المؤمنين بالإسلام وآثاره في القرآن الكريم فبينتُ مفهوم الهداية وأقسامها في القرآن الكريم ، وشرح الصدور وأثره في هداية المؤمنين ، قال تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1] .

ثم تحدثت عن شرح الصدر بالكفر وآثاره ، وبينت حكم الإكراه على الكفر وعقوبته في القرآن الكريم .

وفي الفصل الثاني : جاء الحديث عن ضيق الصدور وآثاره في القرآن الكريم . وقد اشتمل على مبحثين :

تحدثت في المبحث الأول عن : ضيق صدر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بأعدائه ، وضيق صدر موسى – عليه السلام – بأعدائه .

وفي المبحث الثاني : تحدثت عن تضييق الله صدور الكافرين عن الإسلام ، فبينت مفهوم الإضلال في القرآن الكريم، وتضييق الصدور وآثاره في القرآن الكريم .

وقد توخيت عرض المحتوى العلمي لهذا البحث بأسلوب شيق وبعبارة سهلة تقرب المعنى ، مع الالتزام بالدقة العلمية .

أسأل الله أن ينفع به كل من قرأه ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٨ ، ٨٩ .

عنوان البحث (**تحقيق التوازن النفسي في القرآن الكريم من خلال حديثه عن شرح الصدور وضيقها**) .

الملخــص

هذا البحث يمثل انطلاقة واسعة لفهم معاني آيات القرآن الكريم ، حيث قام الباحث بجمع الآيات التي تتحدث عن شرح الصدور وضيقها ، وقام بذكر سبب النزول إن وجد ، ثم ذكر معاني الآيات وأحكامها ، في دراسة قرآنية تتجلى فيها عظمة القرآن الكريم في تحقيق التوازن النفسي لدى الفرد ، ومن ثم إظهار أثر ذلك التوازن على المجتمع.

الدراســات السابقــة :

بعد البحث في المكتبة الإسلامية لم أطلع – فيما أعلم - على بحث في هذا الموضوع .

أســباب اختيـار الموضــوع :

١ – لما كان هذا الموضوع غير مطروق البحث فيه ، فآثرت أن أكتب عنه .

٢ – هذا الموضوع يتعلق البحث فيه بنبي الله محمد – صلى الله عليه وسلم – وحديث القرآن عن شرح صدره الشريف – وكذا نبي الله موسى – عليه السلام – وطلبه من الله عز وجل أن يشرح صدره كما جاء في سورة طه .

٣ – علم الله ﷻ المطلق بما فعله الأعداء مع حبيبه ومصطفاه ، وكليمه موسى عليه السلام .

٤ – القيام بجمع جزئيات هذا البحث من خلال كتب التفسير المختلفة ، مع الاستعانة بكتب السنة النبوية وكذا ما ذكره العلماء الأفاضل في هذا الموضوع .

٥ – المعايشة لكتاب الله عز وجل وإبراز ما فيه من نفائس ودرر ، لكي يزيد الله الذين اهتدوا هدى .

٦ – نصر الله – عز وجل – لرسله –عليهم الصلاة والسلام –وهدايته للمؤمنين ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة .

أهــداف البحــث :

١ – بيان هداية القرآن وإبرازها .

٢ – بيان مفهوم كلٍ من الهداية والضلال .

٣ – إظهار عظمة الإسلام وأنه الدين الذي اختاره الله عز وجل لعباده المؤمنين .

٤ – تجدد حاجات المجتمعات للهدايات الإلهية ، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين ثرية للنظريات العلمية الحديثة يوجب على الباحث المسلم أن يلجأ إلى هدايات الكتاب وإرشادات السنة ليستشف منها الحلول لمشكلات العصر .

٥ – لما كانت المشكلات الإنسانية غير محدودة ، ونصوص الوحي محدودة ، فإن مجابهة تلك المشكلات يوجب البحث عن حلولها من خلال آليات الاجتهاد والسعة الكامنة فيما تحمله آيات التنزيل من قواعد كلية وظنيات دلالية .

٦ – الدراسة الموضوعية هي أوقع المناهج وأعمقها للكشف عن علل النصوص ومناسباتها ، وحكمها ، وهديها ، ودلالتها ، وظلالها ، باستخدام منظار القرآن نفسه ؛ طلبًا لإدراك ملكة التعرف على المقاصد القرآنية .

٧ – إظهار المستعد للإيمان من غير المستعد له ، وبيان جزاء كل فريق .

٨ – لا تصح العقيدة ولا تشرف في النفس معانيها إلا بالقرآن ولا يستقيم سلوك مسلم إلا بفهم كتاب الله تعالى ، ولا تلين النفس بعد القرآن إلا بالحديث النبوي وروحانياته الفياضة ، ولا يصح عمل المسلم إلا بالأحكام الشرعية المقررة في الفقه ، ولا يعصم العقل والفهم عن الخطأ ، ولا تنضبط أحكام الشريعة إلا بأصول الفقه .

تصميم البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

وبعد

فهذا بحث بعنوان (تحقيق التوازن النفسي في القرآن الكريم من خلال حديثه عن شرح الصدور وضيقها) .

هدف هذا البحث : دراسة أقوال العلماء في كيفية شرح الصدر من خلال آيات القرآن الكريم ، وقد جاء هذا البحث في مقدمة وفصلين وخاتمة .

خطة البحث

المقدمة : وتشتمل على موضوع البحث وأسباب اختياره ومنهجه .

الفصل الأول : شرح الصدور وآثاره في القرآن الكريم .

المبحث الأول : شرح صدور الأنبياء وآثاره في القرآن الكريم .

المطلب الأول : شرح صدر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وآثاره.

المطلب الثاني : شرح صدر موسى – عليه السلام – وآثاره .

المبحث الثاني: شرح صدور المؤمنين بالإسلام وآثاره في القرآن الكريم.

المطلب الأول : مفهوم الهداية وأقسامها في القرآن الكريم .

المطلب الثاني : شرح الصدور وأثره في هداية المؤمنين .

المبحث الثالث : شرح الصدر بالكفر وآثاره .

المطلب الأول : الإكراه على الكفر وحكمه في القرآن الكريم .

المطلب الثاني : شرح الصدر بالكفر وعقوبته في القرآن الكريم .

الفصل الثاني : ضيق الصدور وآثاره في القرآن الكريم .

المبحث الأول : ضيق صدور الأنبياء بأعدائهم وأسبابه .

المطلب الأول: ضيق صدر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بأعدائه.

المطلب الثاني : ضيق صدر موسى – عليه السلام – بأعدائه .

المبحث الثاني : تضييق الله صدور الكافرين عن الإسلام .

المطلب الأول : مفهوم الإضلال في القرآن الكريم .

المطلب الثاني : تضييق الصدور وآثاره في القرآن الكريم .

خطـة العمـل

أولاً : تحديد المصادر وجمعها .

ثانيًا : جمع المادة العلمية المتعلقة بهذا الموضوع .

ثالثًا : قراءة المادة وتنقيحها والإبقاء على ما له صلة بالبحث، وترك ما لا صلة له به .

رابعًا : إعادة تنسيقها وترتيبها ووضعها في مظانها من فصول البحث وأبوابه .

خامسًا : تقسيم البحث إلى فصول والفصول إلى مباحث ، والمباحث إلى مطالب .

سادسًا : عرض ما يكتب على المهتمين بهذا العلم والمتخصصين فيه؛ لمعرفة رأيهم ومناقشتهم فيه .

سابعًا : كتابة البحث على الحاسوب مع ترتيبه وتنظيمه وفق الوسائل الحديثة للكتابة .

ثامنًا : الصياغة والإخراج النهائي للبحث في صورته التي يجب أن يكون عليها .

الاستفادة من البحث

يتوقع أن يكون للبحث فائدة عظيمة لدى المسلمين عامة والباحثين خاصة ، من ناحية إدراك المفهوم الصحيح للهداية والإضلال ومعرفة شرح الصدور وتضييقها في اهتداء الإنسان إلى نور الله ﷻ أو صده عن صراط الله المستقيم .

يدل قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ [1] على إثبات الإرادة لله عز وجل في هداية الإنسان وتوفيقه للإيمان والحق والخير ، وقد تمسك أهل السنة بهذه الآية في بيان أن الضلالة والهداية من الله تعالى (أي بخلقه وإيجاده) ، وقد جاءت آية سورة الأنعام لحسم الأمر وهو أن المشركين ليسوا أهلاً للإيمان وغير مستعدين لقبوله ، وقد شرح الله صدر رسوله (ﷺ) فقال تعالى : ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [2] ،

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٢) سورة الشرح آية : ١ .

وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الذكية من الكمالات وإعلامه برضا الله عنه ، وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر ، وكما شرح الله صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق ، ويستفاد منه أيضًا : دعوة الناس إلى الاهتداء بصراط الله المستقيم .

يقول الإمام ابن تيمية : العبد مضطر دائمًا إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء ، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة ، إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين ، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، ثم قال : فالقرآن مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ونواة وأخبار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها ، فهو جاهل بها ضال عنها وكذلك الإسلام وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك العبادة وما اشتملت عليه ، فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر .

منهـج البحـث

منهجي في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي، تتبعت آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن شرح الصدور وضيقها في القرآن الكريم وبينتُ معناها وسبب نزولها إن وجد ، ثم ذكرت أقوال الصحابة والتابعين وإذا كانت هناك آيات بها أحكام تتعلق بهذا الموضوع ذكرتها .

الفصـــل الأول
شرح الصدور وآثاره في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : شرح صدور الأنبياء وآثاره في القرآن الكريم .

المبحث الثاني: شرح صدور المؤمنين بالإسلام وآثاره في القرآن الكريم.

المبحث الثالث : شرح الصدر بالكفر وآثاره .

المبحـــث الأول
شرح صدور الأنبياء وآثاره في القرآن الكريم
وتحته مطلبان

المطلب الأول : شرح صدر نبينا محمد ﷺ وآثاره .
المطلب الثاني : شرح صدر موسى عليه السلام وآثاره .



المطلـــب الأول

شــرح صــدر نبينــا محمــد ﷺ وآثــاره

تحدث القرآن الكريم عن شرح صدر نبينا محمد (ﷺ) فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ (١) .

ســبب نـزول هــذه الآيــة :

روي : أنها لما نزلت قيل يا رسول الله، أنشرح الصدر؟ قال : نعم [وينفسح] قالوا : يا رسول الله ، ألذلك علامة ؟ قال :نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والإعداد للموت قبل نزول الفوت " والصدر : محل العلم والقرآن ، بدليل قوله : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (٢) والمراد به القلب لأنه وعاء الفهم (العلم) ولكن ذكر الصدر لقربه من القلب (٣) .

قال صاحب المعجم الوسيط : " شرح " اللحم : شَرْحًا ، قطعه قطعًا طوالا رِقاقًا : والشيء : بسطه ووسعه ، ويقال شرح صدره بالأمر ، وله حببه إليه وفي

---

(١) سورة الشرح آية : ١ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٤٩ .

(٣) تفسير الراغب ١٢ / ٨٣٣٢ ، وتفسير الطبري ١٢ / ١٠٢ ، وهذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩٦٥ ، ورواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١ ، وابن أبي الدنيا في الموت من طريق البيهقي في شعب الإيمان برقم ١٠٥٥٢ من طريق عدي بن الفضل عن المسعودي عن القاسم عن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود بنحوه ، قال الذهبي في تلخيص المستدرك : عدي ساقط .

التنزيل العزيز : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [١] و- الكلام : أوضحه وفسره [٢] .

ويقول ابن منظور : والشرح : الكشف ، يقال : شرح فلان أمره أي : أوضحه ، وشرح مسألة مشكلة ، بينها ، وشرح الشيء يشرحه شرحًا ، وشرّحه : فتحه وبينه وكشفه وكل ما فُتح من الجواهر فقد شُرح أيضًا تقول : شرحت الغامض إذا فسرته ، ومنه تشريح اللحم ، قال الراجز :

كم قد أكلت كبدًا وإنفحهْ ثم ادخرت ألية مشرّحه

وكل سمين من اللحم ممتد فهو شريحة وشريح، وشرح الله صدره لقبول الخير يشرحه شرحًا فانشرح : وسعه لقبول الحق فاتسع وفي التنزيل : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [٣] وبابه قطع [٤]، وذكر الراغب أن أصل الشرح البسط ونحوه وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه ﷻ .

قال ابن العربي : وشرحه حقيقة حسية وذلك حين كان عند ظئره ، وحين أسري به وشرحه معنى حين جمع له التوحيد في صدره والقرآن ، وعَلَّمه ما لم يكن

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٢) المعجم الوسيط ١ / ٤٧٧ .

(٣) لسان العرب لابن منظور٨ / ٥٠ ، ٥١ .

(٤) مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ص٤٩٩ والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد الطالقاني ١ / ٣٠٨ .

يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيمًا ، وشرحه حين خلق له القبول لكل ما ألقى إليه والعمل به وذلك هو تمام الشرح وزوال الترح (١) .

ثم يبين الطاهر بن عاشور نوع الاستفهام في قوله : ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ وحقيقة الشرح فيقول : إن الاستفهام تقريري على النفي والمقصود : التقرير على إثبات المنفي ، والشرح حقيقته : فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض ومنه الشريحة للقطعة من اللحم ، والتشريح في الطب ويطلق على انفعال النفس بالرضا بالحال المتلبس بها .

وظاهر كلام " الأساس " أن هذا إطلاق حقيقي ولعله راعى كثرة الاستعمال أي هو من المجاز الذي يساوي الحقيقة ، لأن الظاهر أن الشرح الحقيقي خاص بشرح اللحم ، وأن إطلاق الشرح على رضا النفس بالحال أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضيق وما تصرف منه على الإحساس بالحزن والكمد ، قال تعالى : ﴿ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ (٢) فجعل إزالة ما في النفس من حزن مثل شرح اللحم وهذا الأنسب لقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ ﴾ (٣) .

و" لم " جحد ، وفي الاستفهام طرق من الجحد ، وإذا وقع جحد رجع إلى التحقيق كقوله تعالى : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾ (٤) . ومعناه : الله أحكم

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ٤١٢ .

(٢) سورة هود آية : ١٢ .

(٣) سورة الشرح آية : ٦ .

(٤) سورة التين آية : ٨ .

الحاكمين وكذا ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[(١)] .

ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا — وأندى العالمين بطون راح

المعنى : أنتم كذا[(٢)] .

قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: وشرح صدره (ﷺ) هو اتساعه لتحصيل العلم وتنويره بالحكمة والمعرفة ، وقيل هو شق جبريل لصدره في صغره أو في وقت الإسراء حين أخرج قلبه وغسله[(٣)] .

وقال النسفي : حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل[(٤)] .

وتقدم قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ ﴾[(٥)] فالصدر مراد به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك .

وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الذكية من الكمالات ،وإعلامه برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من

---

(١) سورة الزمر آية : ٣٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠ / ١٠٥ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢ / ٤٨٢ .

(٤) تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣ / ٦٥٦ .

(٥) سورة طه آية : ٢٥ .

النصر ، هذا تفسير الآية بما يفيده نظمها واستقلالها عن المرويات الخارجية ، ففسرها ابن عباس: بأن الله شرح قلبه بالإسلام، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نلين لك قلبك [١].

وعن الحسن قال : شرح صدره أن ملئ علمًا وحكمًا .

وقال سهل بن عبد الله التستري : شرح صدره بنور الرسالة ، وعلى هذا الوجه حمله كثير من المفسرين ونسبه ابن عطية إلى الجمهور [٢] .

قال الطبري : إنه الشرح للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحق ، وجعلنا صدرك وعاء للحكمة [٣] .

ويجوز أن يجعل الشرح شرحًا بدنيًا ، وروي عن ابن عباس أنه فسر به ، وهو ظاهر صنيع الترمذي إذ أخرج حديث شق الصدر الشريف في تفسير هذه السورة ، فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شق صدره ﷺ شقًا قدسيًا [٤] وهو المروي بعض خبره في الصحيحين ، أنه كان في رؤيا النوم (ورؤيا الأنبياء وحي) ، وفي بعضها أنه كان يقظة وهو ظاهر ما في " البخاري " .

وفي " صحيح مسلم " أنه كان يقظة وبمرأى من غلمان أترابه ، فقد كان ذلك

(١) معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٧٥ .

(٢) تفسير ابن عطية ٥ / ٤٩٦ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤ / ٤٩٣ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٣ / ٤١٠ ، وتفسير ابن كثير ٨ / ٤٢٩ .

أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل .

وقد رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة ، وعن كثير من الصحابة منهم: أنس بن مالك فيما يرويه مسلم في صحيحه : " أن رسول الله (ﷺ) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ممتقع اللون "(١) .

وفي حديث مسلم عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت أثر الشق في جلد صدر النبي (ﷺ) ، وفي بعض الروايات أن النبي (ﷺ) كان بين النائم واليقظان .

والروايات مختلفة في زمانه ومكانه مع اتفاقها على أنه كان بمكة .

واختلاف الروايات حمل بعض أهل العلم على القول بأن شق صدره الشريف تكرر مرتين ، إلى أربع منها حين كان عند حليمة ، كما جاء في صحيح مسلم ، وفي حديث عبد الله بن أحمد بن حنبل أن الشق كان وعمر النبي (ﷺ) عشر سنين (٢) .

والذي في الصحيح عن أبي ذر: أنه كان عند المعراج به إلى السماء ، ولعل بعضها كان رؤيا ، وبعضها حسًا ، وليس في شيء من هذه الأخبار على اختلاف

(١) صحيح مسلم ١ / ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ١٨٤ .

مراتبها ما يدل على أنه الشرح المراد في الآية وإذ قد كان ذاك الشق معجزة خارقة للعادة ، يجوز أن يكون مرادًا وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في " الأحكام " وعليه يكون الصدر قد أطلق على حقيقته وهو: الباطن الحاوي للقلب ، ومن العلماء من فسر الصدر بالقلب حكاه " عياض " في الشفا [١] ، يشيرإلى ما جاء في خبر شق الصدر من إخراج قلبه وإزالة مقر الوسوسة منه ، وكلا المعنيين للشرح يفيد أنه إيقاع معنى عظيم لنفس النبي ﷺ إما مباشرة ، وإما باعتبار مغزاه كما لا يخفى [٢] .

قال ابن دحية في معراجه وابن المنير وغيرهما [٣] الصحيح أن شق الصدر مرتان .

قال شيخ الإسلام ابن حجر : بل ثلاث مرات ووقع له (ﷺ) ذلك أي شق الصدر ثلاث مرات ، الأولى : وهو صغير في بني سعد عند مرضعته حليمة – رضي الله عنها – والثانية : عند البعثة ، والثالثة : ليلة الإسراء [٤] .

وتكرار حادثة شق صدره الشريف (ﷺ) ثلاث مرات له حكم :

فالأول : كان في زمن طفولته (ﷺ) لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ، ثم عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١ / ١١٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٣) الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء للإمام جلال الدين السيوطي ص ١١٧ .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١ / ٢٠٥ .

الأحوال من التطهير ثم عند الإسراء ليتأهب للمناجاة .

وقال العلامة ابن حجر : ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ لحصول المرة الثالثة كما هي في شرعه (ﷺ) في الطهارة (١) .

وقال الإمام السيوطي : وهذه الحكمة من أعظم الحكم وألطفها وأدقها ، وحقها أن تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب لارتفاع محلها (٢) .

وليست الحكمة من هذه الحادثة – والله أعلم – استئصال غدة الشر في جسم رسول الله (ﷺ) ، إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علقة في بعض أنحائه ، لأمكن أن يصبح الشرير خيّرًا بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر رسول الله (ﷺ) وتهيئته للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته ، إنها إذًا عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم ، وإن كنا لا ننكر أن بين الجسم والنفس ، أو الظاهر والباطن تبادلاً ملحوظًا في التأثير والتأثر .

وأيًا كانت الحكمة فلا ينبغي وقد ثبت الخبر ثبوتًا صحيحًا محاولة البحث عن مخارج لنخرج منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته إلى التأويلات الممجوجة البعيدة المتكلفة ، ولن نجد من مسوغ لمن يحاول هذا رغم ثبوت الخبر وصحته إلا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٢٠٥ .

(٢) الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء ص ١١٨ .

ضعف الإيمان بالله تعالى [١] .

والتفت بعضهم إلى نون المضارعة في " شرح " فذكروا أن فائدة العدول من المتكلم إلى الجمع إما تعظيم حال الشرح ، وإما الإعلام بتوسيط الملك (يعني جبريل) في ذلك الفعل [٢] .

والخلاصة من حديث شق الصدر : أن جبريل – عليه السلام – أتى محمدًا (ﷺ) في صغره ، وشق صدره ، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ، ثم ملأه علمًا وإيمانًا ووضعه في صدره [٣] .

واللام في قوله " لك " لام التعليل ، وهو يفيد تكريمًا للنبي (ﷺ) بأن الله فعل ذلك لأجله ، وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق فإنه لما ذكر فعل نشرح علم السامع أن ثم مشروحًا ، فلما وقع قوله " لك " قوي الإبهام فازداد التشويق ، لأن لك يفيد معنى شيئًا لأجلك فلما وقع بعده قوله " صدرك " تعين المشروح المترقب فيمكَّن في الذهن كمال تمكن ،وهذا ما أشار إليه في الكشاف[٤].

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أي فائدة في زيادة " لك " على ما في

---

(١) فقه السيرة للسيوطي ص٣٨ .

(٢) التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن ١ / ٦٢ .

(٣) التفسير المنير للشيخ وهبه الزحيلي ٣٠/ ٢٩٥ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٩ ، ٤١٠ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ٤/ ٤٧٠، ٤٧١ .

طريقة الإبهام والإيضاح كأنه قيل : ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحًا ، ثم قيل : " صدرك " فأوضح ما علم مبهمًا وكذلك لك ذكرك وعنك وزرك [١] .

وتكلم المفسرون عن الاستفهام في الآية ، فقال الزمخشري : إنه استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك على ما بين تأويله ، ونص الآيات من تفاوت بعيد دقيق يدرك الإعجاز البياني فيه ولا يوصف ، وبحسبنا أن نضع عبارته في التأويل تجاه الآية لندرك بعد ما بينهما وإذا لم يكن بد من توجيه الاستفهام في الآية فهو على وجه التقرير كما قال أبو حيان لا الإنكار كما ذهب الزمخشري .

تقول د. عائشة عبد الرحمن : ومقتضى هذا التأويل ، الوقف عند نشرح – ووضعنا ، ورفعنا – لتأتي " لك " بعدها فتوضح الإبهام ولا نعلم أحدًا من القراء قرأها بالوقف ، بل الإجماع على قراءتها وصلاً [٢]، ثم إن الإبهام فيه – إن جاز القول به يرتفع حتمًا بقوله " صدرك " دون حاجة إلى " لك " وكذلك يتضح الإبهام في الآيات بعدها بكاف الخطاب في " وزرك " ذكرك والنيسابوري خانه التعبير فتأول وضع " لك " هنا بالإقحام على ما لهذا اللفظ ، في الحديث عن القرآن من جفوة وغلظ وعنده أن فوائد إقحام لك ، الإجمال ثم التفصيل ، وإرادة الاختصاص ، أو كونه أهم والأمر أبسط وأوضح من أن نتعثر في تأويله ، فمن مألوف البيان العربي:

---

(١) تفسير الكشاف ٤ / ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ونظم الدرر للبقاعي ٨ / ٤٦٠ .

(٢) التيسير للداني ص ٢٢٤ .

أن يأتي بمثل هذا الأسلوب لا عن زيادة أو إقحام أو إرادة الإجمال ثم التفصيل وإنما للتقرير وتأكيد الاختصاص وتقوية الإيصال ، وأظن أن هذا هو ما لمحه الشيخ محمد عبده حين قال : والإتيان بالجار والمجرور لك ، وعنك وتقديمه على المفعول في الآيات الثلاث ، لزيادة التقرير والإسراع بالتبشير (١).

ومثل هذا مألوف في أساليب العربية ، تقول : أرح لي بالي ، وأزل عني شكي ، واسمع مني نصيحتي ، فلا يقال إن " لي " وعني ، ومني " مقحمة أو زائدة ، وإنما هي ضرورة بيانية اقتضاها المقام ، ولنا أن نستأنس هنا بأسلوب القرآن في مثل آيات ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) لنطمئن أن ليس في الأمر زيادة ولا إقحام (٣) ، والعامة : على جزم الحاء بـ " لم " وقرأ أبو جعفر بفتحها .

وقال الزمخشري : وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها (٤) .

وقال ابن عطية : إن الأصل : " ألم نشرحن " بالنون الخفيفة ثم أبدلها ألفًا ثم حذفها تخفيفًا (٥) .

وقد بين الشوكاني فائدة تخصيص الصدر بالذكر فقال : إنما خص الصدر،

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١١٧ .

(٢) سورة طه آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) التفسير البياني ١ / ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري ٤ / ٤٧٠ .

(٥) تفسير ابن عطية ٥ / ٤٩٦ .

لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات ، والمراد: الامتنان عليه (ﷺ) بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي [١] .

وقال الشنقيطي في الأضواء : وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة [٢] .

وقال عبد الله بن الإمام : حدثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزاز حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي كعب حدثني أبي محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبي بن كعب أن أبا هريرة كان رجلاً جريا على أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله (ﷺ) جالسًا وقال : لقد سألت يا أبا هريرة ، إني لفي الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلاني بوجوه لم أرها [لخلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط فأقبلا إليّ يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما مسًا ، فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر .

فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٤٦١ ، وتفسير ابن كثير ٨ / ٤٣١ .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٨ / ٥٧٤ .

بلا دم ولا وجع ، فقال له : اخرج الغِلَّ والحسد ، فاخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له : ادخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال : اغد وأسلم فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمة للكبير [١] .

وفي حديث أبي هريرة الطويل في الإسراء برسول الله (ﷺ) الذي ذكره الطبري قال : ثم إن محمدًا أثنى على ربه عزوجل فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرًا ونذيرًا ، وأنزل عليّ الفرقان ، فيه بيان لكل شيء ، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرين وشرح لي صدري ، ووضع عني وزري ، ورفع لي ذكري ، وجعلني فاتحًا وخاتمًا " فقال إبراهيم – عليه السلام – بهذا فضلكم محمد (ﷺ) [٢] .

صلى عليك الله يا علم الهدى — واستبشرت بقدومك الأيام
هتفت لك الرواح من أشواقها — وازينت بحديثك الأقلام

وقال حسان بن ثابت :

أغر عليه للنبوة خاتم — من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه — إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله — فذو العرش محمود وهذا محمد

(١) زوائد المسند ٥ / ١٣٩ ، وقال الهيثمي ٨ / ٢٢٢ رجاله ثقات وثقهم ابن حبان .

(٢) الحديث ذكره الطبري ١ / ٦ والبيهقي في دلائل النبوة ٢ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ .



المطلـــب الثانـــي

شـــرح صـــدر موســـى عليه السلام وآثـــاره

لقد طلب موسى عليه السلام أن يشرح صدره كما ورد ذلك في سورة طه، قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ [١]

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به ، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم ، وأشدهم كفرًا ، وأكثرهم جنودًا ، وأعمرهم ملكًا ، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا ، بلغ من أمره أنه ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره .

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم ، في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفسًا فخافهم أن يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله – عز وجل – أن يعبدوه وحده لا شريك له ، ولهذا قال (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي.وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) أي : إذا لم تكن عوني ونصيري ، وعضدي وظهيري ، وإلا فلا طاقة لي بذلك [٢] .

وقال الإمام الألوسي : قال : استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال موسى – عليه السلام – حين قيل له ما قيل ؟ فأجيب بأنه قال ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾

---

(١) سورة طه آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥ / ٢٨٢ .

﴿ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ .

الظاهر أنه متعلق بقوله : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ (١) إلخ . وذلك أنه عليه السلام علم من الأمر بالذهاب إليه والتعليل بالعلة المذكورة ؛ أنه كلف أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فاستوهب ربه تعالى أن يشرح صدره ويجعله حليمًا حمولاً يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات ، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب ، وهو لها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع ، فالمراد من شرح الصدر: جعله بحيث لا يضجر ولا يقلق مما يقتضي بحسب البشرية الضجر والقلق من الشدائد ، وفي طلب ذلك إظهار لكمال الافتقار إليه – عز وجل – وإعراض عن الأنانية بالكلية .

ويحسن إظهار التجلد للعدا ويقبح إلا العجز عند الأحبة

وذكر الراغب : أن أصل الشرح: البسط ونحوه وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه – عز وجل – ولهم فيه عبارات أخر (٢) .

وقال بعضهم : إن هذا القول معلق بما خاطبه الله تعالى من لدن قوله سبحانه

---

(١) سورة النازعات آية : ١٧ .

(٢) المفردات مادة شرح .

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ (١) إلى هذا المقام فيكون قد طلب – عليه السلام – شرح الصدر ؛ ليقف على دقائق المعرفة وأسرار الوحي ، ويقوم بمراسم الخدمة والعبادة على أتم وجه ، ولا يضجر من شدائد التبليغ .

وقيل : إنه عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم وخوطب بما خوطب في ذلك المقام ، احتاج إلى تكاليف شاقة من تلقي الوحي والمواظبة على خدمة الخالق – سبحانه وتعالى – وإصلاح العالم السفلي، فكأنه كلف بتدبير العالمين ، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ، فسأل شرح الصدر ؛ حتى يفيض عليه من القوة ما يكون وافيًا بضبط تدبير العالمين .

وقد يقال : إن الأمر بالذهاب إلى فرعون قد انطوى قيد الإشارة إلى منصب الرسالة المستتبع تكاليف لائقة به منها ما هو راجع إلى الحق، ومنها ما هو منوط بالخلق .

وقد استشعر موسى – عليه السلام – كل ذلك فبسط كف الضراعة ما يعينه على أداء ذلك على أكمل وجه ، فلا يتوقف تعميم شرح الصدر على تعلقه بأول الكلام كما لا يخفى ، ثم إن الصدر عند علماء الرسوم يراد منه القلب لأنه المدرك أو مما به الإدراك والعلاقة ظاهرة .

وفي ذكر كلمة " لي " مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير

(١) سورة طه آية : ١٢ .

بإبهام المشروح والميسر أولاً، وتفسير بها ثانيًا ، فإنه لما قال اشرح لي علم أن ثم مشروحًا يختص به حتى لو اكتفى لتم ، فإذا قيل صدري أفاد التفسير والتفصيل ، أما لو قال اشرح واكتفى فلا ، وكذا الكلام في " يسر لي " .

وقيل : ذكر لي لزيادة الـ عليه السلام ربط كما في قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [1] وتعقب بأنه لا منافاة ، وهو الذي أفاد هذا المعنى .

وفي الانتصاف : أن فائدة ذكرها على أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، فإنه- تعالى- لا يبالي بوجوده وعدمه وقس عليه" وَيَسِّرْ لِي " روى أنه كان في لسانه – عليه السلام – رُتة من جمرة أدخلها فاه في صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر .

قال الفراء : والرتة : حبسة في اللسان [2] .

وقيل : لطمه وقيل : ضربه بقضيب في يده على رأسه فتطير فدعاه بالسياف فقالت آسية بنت مزاحم - وكانت تحب موسى - إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر، فأحضروه وأراد أن يمد يده إلى الياقوت ، فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه، فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة [3] .

يقول الإمام الشنقيطي: ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما

---

(١) سورة الأنبياء آية : ١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٧٨ .

(٣) تفسير الألوسي ٨ / ٤٩٦ .

كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ ﴾[١] .

فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة ، أربعة عوامل بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان في الإقناع (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي) ثم العامل المادي أخيرًا في المؤازرة (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) فقدم شرح الصدر على هذا كله ، لأهميته ؛ لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم[٢] .

أسـباب شـرح الصـدر :

قال ابن القيم – رحمه الله – : وأعظم أسباب شرح الصدر التوحيد ، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه ، قال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾[٣] .

ومنها النور الذي يقذفه الله في القلب وهو نور الإيمان ، ففي الترمذي " إذا

---

(١) سورة طه الآيات : ٢٤ – ٣١ .

(٢) أضواء البيان ٨ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم : أ.د/ أحمد بن محمد الخراط ٢ / ٦٨٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢ / ١٧٨ .

(٣) سورة الزمر آية : ٢٢ .

دخل النور القلب انفسح وانشرح "[١] الحديث ، ومنها الإنابة إلى الله ومحبته بكل القلب ، وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر ، وطيب النفس وكلما كانت المحبة أقوى ، كان الصدر أشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين ومنها : دوام الذكر ، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، يقول الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[٢] .

وعن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال : قال لي رسول الله (ﷺ) : " إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مت مت على الفطرة ، فاجعلهن آخر ما تقول "[٣] .

وعن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – عن النبي (ﷺ) قال: من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لي – أو دعا – استجيب ، فإن توضأ قبلت صلاته[٤] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١١ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ١١ / ١١٢ برقم ٦٣١١ ، ومسلم ٤ / ٢٠٨١ برقم ٢٧١٠.

(٤) الحديث أخرجه البخاري ٣ / ٤٨ برقم ١١٥٤ ، ويراجع المنتخب من أحاديث الآداب والأخلاق ص ١٨٧ – ١٩٠ .

يؤخذ من هذا أن الذكر والدعاء من أسباب انشراح الصدر .

ومن أسباب انشراح الصدر الإحسان إلى الخلق ، ونفعهم بكل ما يمكنه من المال والجاه ، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان . ومنها : الشجاعة فإن الشجاع منشرح الصدر [1] .

ومن أسباب انشراح الصدر طلب العلم ومذاكرته والاجتهاد في تحصيله .

يقول ابن القيم – رحمه الله – عن العلم : فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا والجهل يورث الصدر الضيق والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل علم بل للعلم الموروث عن الرسول (ﷺ) وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرًا وأوسعهم قلوبًا ، وأحسنهم أخلاقًا ، وأطيبهم عيشًا . انتهى كلامه رحمه الله .

ومما لا شك فيه أن مما يشرح الصدر كثرة المعرفة وغزارة العلم ، واتساع الثقافة ، وعمق الفكرة وبعد النظرة ، وأصالة الفهم ، والغوص في الدليل ، ومعرفة سر المسائل ، وإدراك مقاصد الأمور واكتشاف حقائق الأشياء : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [2] .

إن العالم رحب الصدر ، واسع البال ، مطمئن النفس ، منشرح الفؤاد .

---

(١) مختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) سورة فاطر آية : ٢٨ .

وفي هذا يقول ابن الجوزي – رحمه الله – يحكي شيئًا من سيرته في طلب العلم ، يقول : فأما من أنفق عصر الشباب في العلم وهنا نصيحة أقولها للشباب وللناشئة – ولكل شاب لم يتزوج بعد ، وأقولها لكل متزوج لم يعدد ، وأقولها لكل متزوج لم تشغله مشاغل الذرية والزوجات ومشاغل الحياة – أقول : إن صفاء الذهن وصفاء القلب وهمة النفس في طلب العلم قبل أن تمتلئ النفس بمشاغل القوت والولد والزوجات والبيوت ، ثم يقول : فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحصد جني ما غرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا يفقد من لذات البدن شيئًا في مقابلة ما بذله هذا مع وجود لذاته في الطلب التي كانت تأمل به إدراك المطلوب .

ويقول د . أسامة عبد الله خياط :إن من أسباب شرح الصدر : التنزه عن ذميم الصفات ، ومقبوح الأخلاق ، فإنها من أظهر أسباب ضيق الصدر ، فإذا لم يكن للعبد سعي لإخراج تلك الصفات والبرء من دغلها لم ينتفع بشرح صدره ، وكان قلبه لما غلب عليه منها ، وإن من أقبح تلك الصفات وأشدها نكرًا ، الكبر ، والعجب ، والغرور ، والحسد ، والأثرة ، وسائر أمراض القلوب فإنه تورث ضيقًا وهمومًا وغمومًا .

فاتقوا الله عباد الله – واذكروا أنه لا سبيل إلى انشراح الصدر ، وسرور النفس ، وتنغم القلب إلا بالإقبال على الله ، فإنه لا حزن مع الله أبدًا ، ولذلك قال تعالى حكاية لقول نبيه (ﷺ) لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[١] .

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .

قال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم !

وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة [١] .

ومن أسباب انشراح الصدر اليقين وسلامة النفس من الخوف والقلق والتردد ، فاليقين يعين على الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، ويدفع عن القلب الوساوس والخواطر السيئة .

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [٢] .

فاليقين – كما يقول ابن القيم – من أفضل مواهب الرب لعبده ، إذ لا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين ، يقول ابن مسعود في تفسير الآية السابقة : " هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم " .

يقول ابن القيم : " فهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه " [٣].

---

(١) فقه الأمر بالمعروف منتقى من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله ص ١٩ .

(٢) سورة التغابن آية : ١١ .

(٣) انظر : مفتاح دار السعادة ١ / ٤٣٨ .

المبحث الثاني
شرح صدور المؤمنين بالإسلام وآثاره في القرآن الكريم

وفيه مطلبان

المطلب الأول : مفهوم الهداية وأقسامها في القرآن الكريم

المطلب الثاني : شرح الصدور وأثره في هداية المؤمنين

المطلـــب الأول

مفهوم الهداية وأقسامها في القرآن الكريم

قال صاحب المعجم الوسيط: الهدى: النهار و- الطريق،و- الرشاد وفي التنزيل العزيز ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) و- الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب وفي التنزيل العزيز ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (٢) و- الطاعة وفي التنزيل العزيز ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٣) ، والهداية من الهدى ، والهدى : الإرشاد والدلالة ، قال الأزهري : الهدى : البيان ، والهدى : إخراج شيء إلى شيء .

وقد بدأ ذكر الهداية في سورة الفاتحة في قول الله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٤).

قال ابن كثير : لما تقدم الثناء على المسئول - تبارك وتعالى - ناسب أن يعقب بالسؤال ، كما قال : " فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل " (٥).

وهذا أكمل أحوال السائل ، أن يمدح مسئوله ، ثم يسأل حاجته [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : " اهدنا "] لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة ، ولهذا أرشد الله –تعالى- إليه لأنه الأكمل ، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل

---

(١) سورة البقرة آية : ٢ .

(٢) سورة الليل آية : ١٢ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٩٠ ، ويراجع المعجم الوسيط ٢ / ٩٧٨ ، وتهذيب اللغة ٦/ ٢٠١.

(٤) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنة تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها ١ / ١٦٧ حديث رقم ٣٩٥ .

واحتياجه ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[١].

وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول ، كقول ذي النون ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] .

وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول كقول الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء

والهداية هاهنا : الإرشاد والتوفيق ، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا " اهدنا الصراط المستقيم " فتضمن معنى ألهمنا ، أو وفقنا ، أو ارزقنا ، أو اعطنا ، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[٣] أي : بينا له الخير والشر ، وقد تعدى بإلى كقوله تعالى ﴿ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤] ، ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٥] ، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦] وقد تعدى باللام ،

---

(١) سورة القصص آية : ٢٤ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٧ .
(٣) سورة البلد آية : ١٠ .
(٤) سورة النحل آية : ١٢١ .
(٥) سورة الصافات آية : ٢٣ .
(٦) سورة الشورى آية : ٥٢ .

كقول أهل الجنة : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [١] ، أي : وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا ، والصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا اعوجاج فيه [٢] .

وعرف الشيخ المراغي الهداية فقال : الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب والصراط هو الطريق [٣] .

وقد قال بعض العلماء : إن ضد " المستقيم " المعوج .. والمعوج إما أن يكون منحرفًا لا يوصل إلى الغاية ، وإما أن يكون ذا تعاريج يوصل إلى الغاية بعد زمن طويل ، فالمراد بمقابل " المستقيم " أو ضده كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي بمن يسلكه إليها .

وقد قال الأستاذ رشيد رضا : إنه من جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم ، وقد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال : كيف يطلب المؤمن الهداية وهو مهتد مطيع ؟

أجاب العلماء : بان العبد المؤمن محتاج في كل وقت وحال إلى الله في تثبيته على الهداية وازدياده منها ، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله [٤] .

---

(١) سورة الأعراف آية : ٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ بتصرف .

(٣) تفسير المراغي ١ / ٣٥ ، وتفسير المنار ١ / ٥٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٧ ، ١٣٨ ، وتفسير آيات الأحكام : للأستاذ الدكتور/ القصبي محمود زلط ١ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

وقد ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين بعض آيات الهداية التي يوهم ظاهرها التعارض نقلاً عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي فقال : ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) وقوله فيه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (٢) .

فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين ، وفي الثانية عامة للناس والجمع بينهما أن الهداية في الآية الأولى هداية التوفيق والانتفاع والهداية في الآية الثانية هداية التبيين والإرشاد (٣) .

وعن الحسن " اهدنا صراطًا مستقيمًا " بالنصب والتنوين فيهما من غير [أل] في أول الكلمتين ، اعتمادًا على إيضاحه بالبدل كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ (٤) وقيل : معناه معنى التعريف ، لأن فيه معنى التجريد كقوله :

أقادت بنو مروان قيسًا دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل (٥)

---

(١) سورة البقرة آية : ٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٨٥ .

(٣) أصول في التفسير لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) سورة الشورى آية : ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) لطائف الإشارات لفنون القراءات : للإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني ٤ / ١٣٦٧ .

أقسام الهداية

قال الإمام المراغي : وهداية الله للإنسان على ضروب :

١ – هداية الإلهام ، وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء ويصرخ طالبًا به .

٢ – هداية الحواس والإلهام ، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان الأعجم ، بل هما في الحيوان أتم منهما في الإنسان ، إذ إلهامه وحواسه يكملان بعد ولادته بقليل ، ويحصلان في الإنسان تدريجًا .

٣ – هداية العقل ، وهي هداية أعلى من هداية الحس والإلهام ، فالإنسان قد خلق ليعيش مجتمعًا مع غيره ، وحواسه وإلهامه لا يكفيان لهذه الحياة ، فلابد له من العقل الذي يصحح له أغلاط الحياة ، ألا ترى الصفراوي يذوق الحلو مرًا ، والرائي يبصر العود المستقيم في الماء معوجًا .

٤ – هداية الأديان والشرائع ، وهي هداية لابد منها لمن استقرت الأهواء عقله ، وسخر نفسه للذاته وشهواته ، وسلك مسالك الشرور والآثام ،وعدا على بني جنسه ، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع – فبها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول ، وتتبين للناس الحدود والشرائع ، ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها – إلى أن في غرائز الإنسان الشعور – بسلطان غيبي متسلط على الأكوان ، إليه ينسب كل ما لا يعرف له سببًا ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان ، ولا

يصل فكره إلى ما فيه سعادته في هذه الحياة فاحتاج إلى هداية الدين التي تفضل الله بها عليه ووهبه إياها .

وإلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم في آيات كثيرات كقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (١) أي طريقي الخير والشر والسعادة والشقاء ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (٢) أي : أرشدناهم إلى طريق الخير والشر ، فاختاروا الثاني الذي عبر عنه بالعمى وهناك نوع آخر من الهداية وهي: المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير،وهي التي أمرنا الله بطلبها في قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣) .

إذ المراد – دلنا دلالة تصحبها من لدنك معونة غيبة تحفظنا بها من الوقوع في الخطأ والضلال .

وهذه الهداية خاصة به سبحانه لم يمنحها أحدًا من خلقه ، ومن ثم نفاها عن النبي (ﷺ) في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٥).

(١) سورة البلد آية : ١٠ .

(٢) سورة فصلت آية : ١٧ .

(٣) سورة الفاتحة ويراجع تفسير المنار ١ / ٥٣ .

(٤) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٥) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

وأثبتها لنفسه في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[١].

وأما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة والفوز والفلاح ، فهي مما تفضل الله بها على خلقه ومنحوها ، ومن ثم أثبتها للنبي (ﷺ) في قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢] .

هذا .. والصراط المستقيم: هو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتشريع ديني ، كالعلم الصحيح بالله والنبوة ، وأحوال الكون وأحوال الاجتماع ، وقد سمي هذا صراطًا مستقيمًا ؛ تشبيهًا له بالطريق الحسي ، إذ كل منهما موصل إلى غاية ، فهذا سير معنوي يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان ، وذاك سير حسي يصل به إلى غاية أخرى ، وقد أرشدنا الله إلى طلب الهداية منه ، ليكون عونًا لنا ، ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، بعدما نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة ، ونكلف أنفسنا الجري على سننها ؛ لنحصل على خيري الدنيا والآخرة[٣] .

وقد قال الإمام المظهري : وهذا الدعاء من المؤمنين ومن النبي – صلى الله عليه وسلم – مع كونهم على الهداية لطلب التثبيت أو طلب مزيد الهداية، فإن

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

(٢) سورة الشورى آية : ٥٢ .

(٣) تفسير المراغي ١ / ٣٥ ، ٣٦ .

الألطاف والهدايات من الله- تعالى- لا تتناهى على مذهب أهل السنة [١] .

وقال صاحب المنار : ولذلك كان الإنسان محتاجًا أشد الاحتياج إلى العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سير مستقيمًا يوصل إلى السعادة ، لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ، ونسأله الهداية ليكون عونًا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا بعد ما نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام ، وأخذ أنفسنا بها نعلم من ذلك [٢] .

وهداية الله تتنوع أنواعًا لا يحصيها عد كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [٣] قال البيضاوي : ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة :

الأول : إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة .

الثاني : نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل ، والصلاح والفساد ، وإليه الإشارة حيث قال : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [٤]، وقال : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [٥] .

(١) التفسير المظهري المؤلف المظهري محمد ثناء الله المحقق غلام نبي التونسي ١/ ٩ وتفسير البغوي ١ / ٧٥ .

(٢) تفسير المنار ١ / ٥٥ .

(٣) الآية رقم ٣٤ من سورة إبراهيم و ١٨ من سورة النحل .

(٤) سورة البلد آية : ١٠ .

(٥) سورة فصلت آية : ١٧ .

الثالث : الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإياها عنى بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٢) .

الرابع : أن يكشف على قلوبهم السرائر ، ويريهم الأشياء كما هي بالوحي ، أو الإلهام والمنامات الصادقة ، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عنى بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤) .

فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى ، أو الثبات عليه ، أو حصول المراتب المرتبة ، فإذا قاله العارف بالله الواصل عنى : أرشدني طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا ، وتميط غواشي أبداننا ، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك والأمر والدعاء يتشاركان لفظًا ومعنى، ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل، وقيل : بالرتبة (٥) .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ، أن رسول الله (ﷺ) قال : " من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ،

(١) سورة الأنبياء آية : ٧٣ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٩ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

(٤) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ / ٤٤ ، ٤٥ ، وتفسير الراغب الأصفهاني ١ / ٦٠ – ٦٣ ، وروح المعاني للألوسي ١ / ٩٧ .

ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا "[١].

قال الشاعر شوقي محمود أبو ناجي في قصيدته عتب على نفسي :

وتقرأ آيات من الذكر في شجى	**ليطرب قوم للجمال ويصخبوا**
وتلك قلوب القوم غلف كأنهم	**خلوا من جلود تقشعر ليرهبوا**
نعم وجميل ذكر من نبه الورى	**وأيقظهم من غفلة فتقلبوا**
عليه صلاة الله أدبه الذي	**بيمناه يطوي الكون نعم المؤدب**
فأرسله بالنور والحق داعيًا	**بشيرًا ونور الحق أسنى وأرحب**
فأرشد ضلالاً ووحد أمة	**لتهدي إنسانية تتعذب**
لتهدي إنسانية ضل سعيها	**وأعوزها هاد يحن ويحدب**
طوت جنبي الدنيا وباتت سجينة	**تحن إلى طعم الهدوء وتطلب**
وهل يطمئن القلب إلا بذكره	**ألا إن ذكر الله للمرء أطيب**
فهل يوقظ النوام صرخة هاتف	**نذير وعريان وفي عطفه أب**
فإن لنا منه لعزمًا وهمة	**ترد دعاة الشر مهما تألموا**
ويرتفع اسم الله الله أكبر	**بصوت مدو في العوالم يطرب** [٢]

(١) الحديث أخرجه مسلم كتاب في العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ١١٦٥ حديث رقم ٢٦٧٤ .

(٢) الإرشاد مجلة إسلامية شهرية جامعة العدد الثالث السنة السادسة ربيع أول ١٤٠٤هـ ديسمبر ١٩٨٣م ، ص ٣٨ .

لطيفـــة :

التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[١].

وذلك : أن الهدى المثبت له (ﷺ) في الآية الأولى هو الهدى العام الذي هو البيان ، والدلالة والإرشاد ، وقد فعل ذلك (ﷺ) فبين المحجة البيضاء ، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، والهدى المنفي عنه في آية (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق ، لأن ذلك بيد الله وحده ، وليس بيده (ﷺ) ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾[٣] .

---

(١) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٢) سورة المائدة آية : ٤١ .

(٣) سورة النحل آية : ٣٧ ، ويراجع اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧ / ٢٢٤ ، والتفسير الكبير للرازي ٢٤ / ٣ ، وبحر العلوم ١ / ٢٠٥ ، وتفسير السعدي ٦٢٠ ، وأضواء البيان ٧ / ٢٠ – ٢١ .

المطلـب الثانـي
شرح الصدر وأثره في هداية المؤمنين

يقول الله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ ﴾ (١) .

مناسبة هذه الآية لما قبلها :

هذه الآية استمرار في مناقشة مواقف تعنت المشركين والرد عليهم وتفنيد حججهم وشبهاتهم ، وهي الآن تحسم الأمر فتوضح أنهم ليسوا أهلاً للإيمان وغير مستعدين لقبوله ، كما أوضح في الآية السابقة أنهم غير أهل للنبوة ، وعلى كل حال طريق الحق قد بان لكل ذي بصيرة ومنهج الاستقامة الذي يرضي الله قد تجلى لكل البشرية ، فمن قبله فله دار السلامة ، ومن أعرض عنه فله عذاب النار .

وقيل : هذا الجزاء يوجد الحشر والحساب وإقامة الحجة على الكفار .

سبب نزول هذه الآية :

قال مقاتل : نزلت في رسول الله (ﷺ) وأبي جهل ،وأقول الآية عامة ولا حجة في شيء من ذلك .

" الهدى " في هذه الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه .

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

قوله تعالى " يشرح " قال صاحب المعجم الوسيط : (شرح) اللحم – شرحًا : قطعه قطعًا طوالاً رقاقًا و– الشيء : بسطه ووسعه . ويقال شرح صدره بالأمر . و– له : حببه إليه ، وفي التنزيل " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " و– الكلام : أوضحه وفسره ، ويقال : شرح شق وأصله التوسعة ، قال ابن الأعرابي : الشرح الفتح . وقال الليث : يقال : شرح الله صدره فانشرح والشرح : البسط والتوسعة [١].

وبين لفظ الشرح والضيق طباق وهو من المحسنات البديعية [٢] .

وقال القرطبي : وشرح الله صدره : وسعه بالبيان لذلك ، وشرحت الأمر: بينته وأوضحته ، وكانت قريش تشرح النساء شرحًا ، وهو مما تقدم من التوسعة ، والبسط ، وهو وطئ المرأة على قفاها ، فالشرح : الكشف تقول : شرحت الغامض ومنه تشريح اللحم .

قال الراجز :

كم أكلت كبدًا وانفحة ثم ادخرت إليه مشرّحة

والقطعة منه شريحة . وفي يشرح ضمير عائد على الهدى ، قال وعوده على الله عز وجل أبين [٣].

---

(١) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٢) صفوة التفاسير المؤلف محمد علي الصابوني ١ / ٣٨٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٧ / ٨١ وتفسير ابن عطية ٢ / ٣٤٢ .

ومعنى يشرح صدره للإسلام يوسعه لقبول الإيمان والخير .

أو يقذف في قلبه نورًا فينفسح له ويقبله كما ورد في الحديث ، والمراد جعل النفس مهيأة لقبول الحق فيها .

" ضيقًا " ضد الواسع والضيق : فيعل من أضاق الشيء انضمت أجزاؤه إذا كان مجوفًا .

" حرجًا " بفتح الراء وكسرها شديد الضيق من الحرجة ، وهي: الشجر الكثير الملتف ، بحيث يصعب الدخول فيه ، وقد حرج صدره يَحرَج حرجًا والحرج : الإثم والحرج أيضًا : الناقة الضامرة ، ويقال : الطويلة على وجه الأرض .

عن أبي زيد : فهو لفظ مشترك ، والحرج خشب يشد بعضه إلى بعض يحمل فيه الموتى ، والحرج : اسم فاعل من حرج إذا اشتد ضيقه وبالفتح : المصدر قاله الزجاج وأبو علي ، وقال أبو الهيثم : الحراج غياض من شجر السِّلم ملتفة واحدها حرجة ، لا يقدر أحد أن يدخل فيها أو ينفذ [١] .

وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق ، فإذا قيل فلان حرج الصدر فالمعنى : ذو حرج في صدره ، فإذا قيل : حرج فهو فاعل ، يروى عن ابن عباس أنه قال : الحرج موضع الشجر الملتف ، فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي يلتف فيه الشجر وأهل اللغة أيضًا يقولون : الشجر الملتف

---

(١) المعجم الوسيط ١ / ١٦٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٢ / ٢٩٠ ، وتفسير البحر المحيط ١ / ٦٢١ .

يقال له الحرج ، والحرج في اللغة : أضيق الضيق ، والذي قاله ابن عباس صحيح حسن ، فالمعنى عند أهل اللغة : إنه ضيق جدًا .

ويجوز حَرِجًا بكسر الراء فمن قال حرج ، فهو بمنزلة قولهم : رجل دَنِفٌ لأن قولك دلَفٌ ههنا وحَرَج ليس من أسماء الفاعلين إنما بمنزلة قول : رجل عدل أي ذو عدل [١] .

يصعد أو يصاعد أي : يتصاعد في السماء ، ويسبح في الفضاء كأنما يزاول أمرًا غير ممكن إذا كلف الإيمان ، لشدته عليه ، كذلك الجعل يجعل الله الرجس أي : يسلط الله العذاب ، أو الشيطان وأصل الرجس : كل ما يستقذر حسًا أو شرعًا أو عقلاً وهذا منهج محمد ودينه [٢] .

القــراءات القرآنيـــة :

قرأ ابن كثير " يَصْعدُ " وقرأ عاصم في رواية أبي بكر يَصَّاعَدُ وأصله يتصاعد الباقون : يَصَّعَّدْ وأصله يتصعد وقراءة من قرأ يَصَّعَّد ويَصَّاعَدْ واحد والمعنى فيهما : أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدر على ذلك .

قال البغوي في معنى قراءة " يَصَّعَّدْ " يعني : يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء [٣] .

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢ / ٢٩٠ .

(٢) التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ٨ / ٣٨ .

(٣) الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة : أ.د / أحمد بن محمد الخراط ص ١٦٠ ، =

الإعـراب : الهمزة للاستفهام و" من " اسم موصول مبتدأ ، والخبر مقدر ، أي كمن قسا قلبه ، الجار " للإسلام " متعلق بـ " شرح " وجملة " فهو على نور " معطوفة على جملة " شرح " الجار " من ربه " متعلق بنعت لـ " نور " وجملة " فويل للقاسية " مستأنفة و" ويل " مبتدأ ، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها تدل على دعاء ، والجار " للقاسية " متعلق بخبر " ويل " " قلوبهم " فاعل " القاسية الجار من " ذكر " متعلق بـ "القاسية " (١) .

المعنـــى العـــام :

عرف من الآية السابقة أن المشركين سيلقون جزاء عنادهم وغرورهم ، وهنا كلمة الفصل وهي أن الأمر كله لله فلا يهتمن أحد ولا يحزن على إعراض المشركين عن دعوة الإسلام ، فمن يرد الله أن يوفقه للحق والخير والإسلام ، ومن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة القرآن ، فإنه يشرح صدره وييسره وينشطه ويسهله لذلك ، كقوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (٢) . وقوله : ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (٣) .

قال ابن عباس في آية " يشرح صدره للإسلام " يقول تعالى يوسع قلبه

وتفسير النسفي : مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ١ / ٥٣٥ ، وتفسير القرطبي ٧ / ٨٢ ، وتفسير البغوي ٢ / ١٥٨ .

(١) المجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم ٣ / ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ .

(٢) سورة الزمر آية : ٢٢ .

(٣) سورة الحجرات آية : ٧ .

للتوحيد والإيمان به وهو تفسير ظاهر مقبول . وجاء في حديث رواه عبد الرزاق عن أبي جعفر : وسئل النبي (ﷺ) عن هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : " نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح " قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت " .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري عن أبي جعفر أيضًا قال : قال رسول الله (ﷺ) عن هذه الآية : " إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح " قالوا : يا رسول الله هل لذلك من أمارة ؟ قال : " نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت "[١] .

وروى الطبري عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله (ﷺ) : " إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح " قالوا : فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال: " الإنابة إلى دار الخلود ، والتنحي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقى الموت"[٢].

قال ابن كثير : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا [٣] ، والله أعلم .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١١.

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ١٠٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٣٦ .

وإلقاء هذا النور يكون في موضعه في النفس التي حسنت فطرتها وطهرت ، وكان فيها استعداد للخير وميل إلى اتباع الحق ، ومن فسدت فطرته بالشرك ، وتدنست بالآثام يجد في صدره ضيقًا شديدًا عازلاً له عن الإيمان ، كاتمًا له عن نفاذ الخير إليه ، مثله كمثل من يصَّعدُ إلى السماء في طبقات الجو العليا ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة .

وكما يجعل الله صدر من أراد إضلاله لفقد استعداده للإيمان ضيقًا حرجًا ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى امثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيقويه ويصده عن سبيل الله ، سبيل الحق [١]. والهدى : لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء ، كقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢].

وتأتي بمعنى : إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان ، والطرق والأعمال المفضية إليها ، كقوله تعالى : ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [٣] وغير ذلك إلا أنها في هذه الآية وفي قوله : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [٤] .

وفي قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٥] ونحوها لا يتجه حملها إلا على

---

(١) تفسير الطبري ٨ / ٢٤ .

(٢) سورة الشورى آية : ٥٢ .

(٣) سورة محمد آية : ٤ ، ٥ .

(٤) سورة الأعراف آية : ١٧٨ .

(٥) سورة القصص آية : ٥٦ .

خلق الإيمان واختراعه ، إذ الوجوه من الهدى تدفعه قرائن الكلام مما قبل وبعد .

وقوله : " يشرح صدره " ألفاظ مستعارة هاهنا ، إذ الشرح : التوسعة والبسط في الأجسام ، وإذا كان الجرم مشروحًا موسعًا كان معدًا ليحل فيه ، فشبه توطئة وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع ، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجرم المشروح .

و" الصدر" عبارة عن القلب ، وهو المقصود ، إذ الإيمان من خصاله، وكذلك الإسلام عبارة : عن الإيمان ، إذ الإسلام أعم منه ، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى ، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم وأدنى الهدى حب الأعمال وامتثال العبادات [١].

ومن الآيات التي تحدثت عن شرح صدور المؤمنين قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [٢] .

سبب نزول هذه الآية :

في ذلك ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأبي بن خلف ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

---

(١) تفسير ابن عطية ٢ / ٣٤٢ .

(٢) سورة الزمر آية : ٢٢ .

الثاني : نزلت في علي وحمزة وأبي لهب وولده ، قاله عطاء .

الثالث : نزلت في رسول الله (ﷺ) وفي أبي جهل ، قاله مقاتل . وقد علق ابن الجوزي على هذه الأسباب فقال : ولا حجة في شيء من ذلك والآية عامة [1].

يقول الإمام الطبري : يقول تعالى ذكره أفمن فسح الله قلبه لمعرفته والإقرار بوحدانيته والإذعان لربوبيته والخضوع لطاعته [2] .

وقال القرطبي : شرح فتح ووسع ، قال ابن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه ، وقال السدي : بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام [3] .

قال الزجاج : جوابه متروك لأن الكلام دال عليه تقديره : أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد ؟ ويدل على هذا قوله : " فويل للقاسية قلوبهم " [4] .

والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكره المفسرون : علي وحمزة – رضي الله عنهما .

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤ / ١٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢١ / ٢٧٧ .

(٣) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٤٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢ / ٢٩٠ .

وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه • وقال مقاتل : عمار بن ياسر ، وعنه أيضًا والكلبي : رسول الله (ﷺ) والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه .

قوله " فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ" أي : فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين تنوير الحق في قلبه ، فهو لذلك لأمر الله متبع وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره وضيقه عن استماع الحق واتباع الهدى والعمل بالصواب ؟

وقد ذكر صاحب زاد المسير في المراد بقوله تعالى " فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ " أربعة أقوال :

أحدها : اليقين . قاله ابن عباس .

الثاني : كتاب الله يأخذ به وينتهي إليه . قاله قتادة .

الثالث : البيان . قاله ابن السائب .

الرابع : الهدى . قاله مقاتل [١] .

وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه ، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام ، إذ ذكر أحد الصنفين وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " يقول تعالى ذكره : فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله ، وأعرضت يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره

---

(١) زاد المسير ٤ / ١٣ ، وتفسير القرطبي ١٥ / ٢٤٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٢٩٠ .

مذكرًا به عباده ، فلم يؤمن به ولم يصدق بما فيه .

وقيل : " مِنْ ذِكْرِ اللهِّ " والمعنى : عن ذكر الله فوضعت " من " مكان " عن " كما يقال في الكلام أتخمت من طعام أكلته ، وعن طعام أكلته بمعنى واحد .

قال الفراء : وإنما قست قلوبهم من ذكر الله ؛ لأنهم جعلوه كذبًا فأقسى قلوبهم، ومن قال قست قلوبهم عنه: أراد أعرضت عنه، ومن قال: " فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله " و " عن ذكر الله " كل صواب(١).

فإن قيل : كيف يقسو القلب من ذكر الله عزوجل ؟

فالجواب : أنه كلما تلي عليهم ذكر الله الذي يكذبون به قست قلوبهم عن الإيمان به .

وقد قرأ أبي بن كعب وابن أبي عبلة وأبو عمر أن " قلوبهم عن ذكر الله " مكان قوله " من " .قال الزجاج : فمن قال : " من ذكر الله " فالمعنى : كلما تلي عليه ذكر الله قسا قلبه كما قال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾(٢) .ومن قال : " عن ذكر الله " فالمعنى : أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب وما غضب

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ٤١٨ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٢٥ .

الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم. قيل المراد بالقاسية قلوبهم : أبو لهب وولده .

وقوله " أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" يقول تعالى ذكره هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين لمن تأمله وتدبره يفهم : أنه في ضلال عن الحق جائر .

روى البخاري بسنده أن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – قال : أرسل إلى أبي بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر – رضي الله عنه – : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله (ﷺ) ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ﷺ) ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله (ﷺ) ؟

قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا



عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر – رضي الله عنهما [١].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن ١/ ٨٩٤ حديث رقم ٤٩٨٦ .

المبحث الثالث
شرح الصدر بالكفر وآثاره

وتحته مطلبان

المطلب الأول : الإكراه على الكفر وحكمه في القرآن الكريم

المطلب الثاني : شرح الصدر بالكفر وعقوبته في القرآن الكريم

المطلـــب الأول

الإكراه على الكفر وحكمه في القرآن الكريم

يقول الله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١) .

علاقة الآية بما قبلها :

ولما ذكر الذين لا يؤمنون مطلقًا ، أتبعهم صنفًا منهم هم أشد كفرًا فقال تعالى " من " أي : أي مخلوق وقع له أنه " كفر بالله " أي الذي له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما يدل على الكفر ، ولما كان الكفر كله ضارًا وإن قصر زمنه أثبت الجار فقال تعالى " من بعد إيمانه " بالفعل أو بالقوة ، لما قام على الإيمان من الأدلة التي أوصلته إلى حد لا يلبس فصار استكباره عن الإيمان ارتدادًا عنه ، وجواب الشرط دل على ما قبله وما بعده على أنه : فهو الكاذب ، أو فعليه غضب من الله . " إلا من أكره " أي وقع إكراهه على قول كلمة الكفر " وقلبه " أي : والحال أن قلبه " مطمئن بالإيمان " فلا شيء عليه ، وأجمعوا – مع إباحة ذلك له – أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر ، بل إن ثبت كان ذلك أرفع درجة .

وقال الطاهر بن عاشور : لما سبق التحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه ،

---

(١) سورة النحل آية : ١٠٦ ، ١٠٧ .

وأن لا يَغُرَّهم ما لأمة المشركين من السعة والرُّبُو ، والتحذير من زلل القدم بعد ثبوتها ، وبشروا بالوعد بحياة طيبة وجزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التمسك بالقرآن والاهتداء به ، وأن لا تغرهم شبه المشركين وفُتُونُهُمْ في تكذيب القرآن ، عقب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان ، فالكلام استئناف ابتدائي (١) .

سبب نزول هذه الآية الكريمة :

١ – هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ، في قول أهل التفسير ، لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه ، قال ابن عباس : أخذه المشركون ، وأخذوا أباه وأمه سمية ، وصهيبًا وبلالاً وخبابًا وسالمًا ، فعذبوهم ، وربطت سمية بين بعيرين ، ووجئ قُبلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام٠وأما عمار ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : " كيف تجد قلبك "؟ قال : مطمئن بالإيمان، فقال رسول الله ﷺ: " فإن عادوا فعد " (٢) .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٢ .

(٢) المقبول من أسباب النزول للدكتور أبو عمر نادي بن محمود حسن الأزهري ، ص٤٣٠ ، ٤٣١ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨٨ ، وأخرجه الطبري ١٤ / ٣٧٣ – ٣٧٤ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس . قال الحافظ في الفتح ١٢ / ٣١٢ : وفي سنده ضعف . أ.هـ .
وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١ / ٣٦٠ ، والطبري ١٤ / ٣٧٤ عن أبي عبيدة بن محمد بن ياسر . قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٢ وهذا مرسل ورجاله ثقات .
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٠٨ – ٢٠٩ من هذا الوجه ، فزاد في السند فقال : عن =

٢ – وقال الكلبي : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن خطل ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم ، ثم قال : إلا من أكره [١] .

٣ – قال مجاهد : نزلت في ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله (ﷺ) أن هاجروا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم ، فكفروا كارهين . وقال عكرمة بمثل ما قال مجاهد وزاد : وفيهم نزلت ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾ [٢] .

٤ – وقال مقاتل : نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرهًا ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، ثم أسلم [جبر] وحسن إسلامه وهاجر جبر مع سيده .

٥ – وقال ابن عاشور : نزلت في عمار بن ياسر [وولده ياسر] وأمه سمية وخباب بن الأرت ، وسلمة بن هشام ، والوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمقداد بن الأسود ، وقوم أسلموا ففتنهم المشركون عن دينهم ، فثبت على

= أبي عبيدة عن أبيه ، وهو مرسل أيضًا .وقال في الدراية ٢ / ١٩٧ وإسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه ، ويراجع نظم الدرر للبقاعي ١١/ ٢٥٨ ، ٢٥٩.

(١) النكت والعيون ٣ / ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢) سورة النساء آية : ٩٨ .

الإسلام بعضهم وافتتن بعضهم [١] .

قال الأخفش " من " ابتداء وخبره محذوف اكتفى منه بخبر" مَن " الثانية، كقولك : مَن يأتنا من يحسن نكرمه [٢] .

قال القرطبي مبينًا حكم من أكره على الكفر :

١ – أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل ، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر ، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي غير محمد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدًا في الظاهر ، وفيما بينه وبين الله على الإسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ، ولا يرث أباه إن مات مسلمًا .

وهذا قول يرده الكتاب والسنة قال الله تعالى " إلا من أكره" الآية وقال ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [٣] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٤] الآية .

---

(١) تفسير البغوي ٥ / ٤٦ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢ / ٦٠٨ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٢٨ .

(٤) سورة النساء آية : ٩٧ .

وقال : ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾ (١) الآية ، فعذر الله المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك ما أمر الله به ، والمكره لا يكون إلا مستضعفًا غير ممتنع من فعل ما أمر به ، قاله البخاري .

٢ – وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول ، وأما في الفعل ، فلا رخصة فيه ، مثل: أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا ، يروى هذا عن الحسن البصري – رضي الله عنه – وهو قول الأوزاعي وسحنون من علمائنا . وقد علق الشيخ الطاهر بن عاشور على هذا الرأي قائلاً : وهذه تفرقة غير واضحة (٢) .

وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك فقال : إن الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى ، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه ، والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة ، وما أحراه بالسجود حينئذ ، ففي الصحيح عن ابن عمر قال : كان رسول الله (ﷺ) يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه (٣) ، قال : وفيه نزلت ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ

---

(١) سورة النساء آية : ٩٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٥ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت ص ٢٨٤ حديث رقم ١٦١٢ .

فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

في رواية ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة ، فإذا كان هذا مباحًا في السفر في حالة الأمن، لتعب النزول عن الدابة للتنفل ، فكيف بهذا ؟

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلمًا به ، فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالاً ، وهو يريد أن الفعل في حكمه .

٣ – وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أَسَرّ الإيمان ، روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول ، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق .

روى ابن القاسم عن مالك : أن من أكره على شرب الخمر أو ترك الصلاة أو الإفطار في نهار رمضان، أن الإثم عنه مرفوع (٢) ولا يلزم المكره شيء من ذلك (٣) .

وأجمع العلماء على : أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن

---

(١) سورة البقرة آية : ١١٥ .

(٢) تفسير ابن عطية ٣ / ٤٢٣ ، وفتح الباري ١٢ / ٣١٤ ، وأورده العيني في عمدة القاري ٢٤ / ٩٨ أثر عمر ومكحول .

(٣) قاله مطرف ورواه عن مالك وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ ، ويراجع تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ بتصرف .

يفدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واختلف في الزنى ، فقال مطرف وأصبغ وابن عبد الحكم وابن الماجشون : لا يفعل أحد ذلك ، وإن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد ، وبه قال أبو ثور ، والحسن .

قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى، ولا حد عليه ، خلافًا لمن ألزمه ذلك لأنها رأى أنها شهوة خلقية لا يتصور الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك وهو الذي أسقط حكمه ، وإنما يجب الحد على شهوة بعث عليها سبب اختياري ، فقاس الشيء على ضده ، فلم يحل بصواب من عنده .

وقال ابن خويزمنداد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى اكره الرجل على الزنى ، فقال بعضهم : عليه الحد ، لأنه إنما يفعل ذلك باختياره . وقال بعضهم : لا حد عليه .

قال ابن خويزمنداد : وهو الصحيح . وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حد ، وإن أكرهه السلطان ، فالقياس أن يحد ، ولكن أستحسن ألا يحد . وخالفه صاحباه فقالا : لا حد عليه في الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى ، جاز أن ينتر .

قال ابن المنذر : لا حد عليه ، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان .

واختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه، فقال الشافعي وأصحابه : لا يلزمه

شيء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلي وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئًا وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر ، وابن عباس وعطاس ، وطاوس والحسن ، وشريح والقاسم ، وسالم ومالك ، والأوزاعي وأحمد ، وإسحاق وأبي ثور .

وأجازت طائفة طلاقه ، رُوي ذلك عن الشعبي والنخعي وأبي قلابة والزهري وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالهازل ، وهذا قياس باطل ، فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به ، والمكره غير راض ، ولا نية له في الطلاق (١) .

وقد قال عليه الصلاة والسلام" إنما الأعمال بالنيات " (٢) ، وقال الشافعي : طلاق المكره لا يقع (٣) ، وحجته قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (٤) .

وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص : فليس بطلاق ، ومن أكرهه السلطان ، فهو طلاق . وفسره ابن عيينة فقال : إن اللص يقدم على قتله ، والسلطان

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٦٣ ، ١٦٤ ، وتفسير القرطبي ١٢ / ٤٣٥ – ٤٣٨ بتصرف ، وتفسير ابن عطية ٣ / ٤٢٣ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١ / ٤٣٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم كتاب الجهاد باب قوله (ﷺ) " إنما الأعمال بالنية " ص ٨٥٣ حديث رقم ٤٩٢٧ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠ / ٢٧٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

لا يقتله .

قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر ، فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مُجري المعاريض " فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " ومتى لم يكن كذلك كان كافرًا ، لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها .

مثاله : أن يقول له : اكفر بالله ، فيقول : باللاهي ، فيزيد الياء ، وكذلك إذا قيل له : اكفربالنبي ، فيقول : هو كافر بالنبي ، مشدَّدًا وهو المكان المرتفع من الأرض . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ، فيقصد أحدهما بقلبه ، ويبرأ من الكفر ، ويبرأ من إثمه ، فإن قيل له : اكفر بالنبيء مهموزًا فيقول : هو كافر بالنبيء ، يريد بالمخبر . أيّ مخبر كان ، كطليحة ومسيلمة الكذاب ، أو يريد به النبي الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رتما دُقاق الحَصَى مكان النبيء من الكاثب

ولذلك يحكى عن بعض العلماء من زمن فتنة أحمد بن حنبل على خلق القرآن ، أنه دعى إلى أن يقول بخلق القرآن ، فقال : القرآن والتوراة والإنجيل والزبور – يعددهن بيده – هذه الأربعة مخلوقة يقصد هو بقلبه أصابعه التي عدد بها ، وفهم الذي أكرهه أنه يريد الكتب الأربعة المنزلة من الله على أنبيائه ، مُخلص في نفسه ، ولم يضره فهم الذي أكرهه [١] .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٦٠ ، ١٦١ .



هل المكره يدخل تحت التكليف ؟

فأما المكره فيدخل تحت التكليف ؛ لأنه يفهم ويسمع ويقدر على تحقيق ما أمر به وتركه .

وقالت المعتزلة : ذلك محال ؛ لأنه لا يصح منه فعل ما أكره عليه ولا يبقى له خيرة، وهذا غير صحيح ،فإنه قادر على الفعل وتركه ، ولهذا يجب عليه ترك القتل إذا أكره على قتل مسلم ويأثم بفعله ، ويجوز أن يكلف ما هو على وفق الإكراه كإكراه الكافر على الإسلام وتارك الصلاة على فعلها ، فإذا فعلها قيل : أدى ما كلف لكن إنما تكون منه طاعة إذا كان الابتعاث بباعث الأمر دون باعث الإكراه . فإن كان إقدامه للخلاص من سيف المكره لم تكن طاعة ولا يكون مجيبًا داعي الشرع ، وإن كان بفعلها ممتثلا أمر الشارع بحيث كان بفعلها لولا الإكراه فلا يمتنع وقوعها طاعة وإن وجدت صورة التخفيف [١] .

والإكراه : الإلجاء إلى فعل ما يكره فعله ، وإنما يكون ذلك بفعل شيء تضيق عن عمله طاقة الإنسان من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه .

هل العزيمة عند افكراه على الكفر أفضل أم الرخصة ؟

إذا كانت الآية تفيد أن النطق بكلمة الكفر عند الإكراه رخصة ، فإن السنة النبوية تفيد أن الأخذ بالعزيمة أفضل ، لأنه إعزاز للدين ، وليس هذا من قبيل إلقاء النفس في التهلكة ، بل هو كالقتل في الغزو كما قال العلماء .

---

(١) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه لابن قدامة المقدسي ص ٥٠ .

ومما يشهد أن الأخذ بالعزيمة أفضل ، ما أخرجه ابن أبي شيبة عن معمر أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من المسلمين ، فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فيّ ؟ فقال : أنت أيضًا فخلاه .

وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فيّ؟ فقال : انا أصم ، فأعاد عليه ثلاثًا ، فكرر عليه الجواب ، فقتله ، فلما علم رسول الله (ﷺ) خبرهما قال : " أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى وأما الثاني : فقد صدع بالحق فهنيئًا له الجنة " (١) .

فإن قيل: ألم يأمر رسول الله (ﷺ) عمار بن ياسر بالأخذ بالرخصة وقال له : إن عادوا فعد " ، وهذا يقتضي أن الأخذ بالرخصة أفضل ؛ لأن الأمر ظاهره الوجوب ؟

أجيب بأن الأمر للإباحة ، وأن ما جاء في هذا الحديث يصرفه عن الوجوب .

واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ، فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة ، ذكره ابن حبيب وسحنون .

وذكر ابن سحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف ، فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير، فإن لم يفعل

(١) عزاه السيوطي في الدر ٤ / ٢٥٠ لابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً ، وذكر القاسمي أن اسم الرجل حبيب بن زيد الأنصاري ، تفسير القاسمي ٦ / ٤١٣ ، وتفسير أبي السعود ٥ / ١٤٣ .

حتى قتل ، خفنا أن يكون آثمًا ، لأنه كالمضطر [١] .

قال مالك : والقيد إكراه ، والسجن إكراه ، والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي وإنفاذه لما يتوعد . واعلم أن الآية إن كانت تشير إلى نفر كفروا بعد إسلامهم كانت من موصولة ،وهي مبتدأ والخبر فعليهم غضب من الله ، وقرن الخبر بالفاء ؛لأن في المبتدأ أشبها بأداة الشرط وقد يعامل الموصول معاملة الشرط ، ووقع في القرآن في غير موضع ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [٢] . وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٣] .

وقيل : إن فريقًا كفروا بعد إسلامهم كما روي في شأن جبر غلام ابن الحضرمي . وهذا الوجه أليق بقوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [٤] وإن كان ذلك لم يقع فالآية مجرد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر ، ولذلك تكون مَن شرطية ، والشرط غير مراد به معين بل هو تحذير، أي : من يكفروا بالله ، لأن الماضي في الشرط ينقلب إلى معنى المضارع ، ويكون قوله "

---

(١) تفسير آيات الأحكام للدكتور القصبي زلط ٣ / ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، وتفسير القرطبي ١٢/ ٤٤٤ ، والتفسير القرآني للقرآن ٧ / ٣٧٦ .

(٢) سورة البروج آية : ١٠ .

(٣) سورة التوبة آية : ٣٤ .

(٤) سورة النحل آية : ١٠٨ .

فعليهم غضب من الله " جوابًا والتحذير حاصل على كلا المعنيين [١] .

وقوله " إلا من أكره " فيه أوجه : أحدها : أنه مستثنى مقدم من قوله " فعليهم غضب من الله " وهذا يكون فيه منقطعًا ؛ لأن المكره لم يشرح بالكفر صدرًا . وقال أبو البقاء : ليس بمقدم فهو كقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ....

فظاهر كلامه يدل على : أن بيت لبيد لا تقديم فيه ، وليس كذلك فإنه ظاهر في التقديم جدًا .

الثاني : أنه مستثنى من جواب الشرط ، أو من خبر المبتدأ المقدر تقديره : فعليهم غضب من الله إلا من أكره ، ولذلك قدر الزمخشري جزاء الشرط قبل الاستثناء ، وهو استثناء متصل ؛ لأن الكفر يكون بالقول من غير اعتقاد كالمكره وقد يكون – والعياذ بالله – باعتقاد ، فاستثنى الصنف الأول [٢] .

وقد رخصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنها كفر في عرف الناس من قول أو فعل. وقد أجمع علماء الإسلام على : الأخذ بذلك في أقوال الكفر ، فقالوا : فمن أكره على الكفر غيرُ جارية عليه أحكام الكفر ؛ لأن الإكراه قرينة على أن كفره تقية ومصانعة بعد أن كان مسلمًا ،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٣ .

(٢) الدر المصون في إيضاح الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٧ / ٢٩٠ ، واللباب في علوم الكتاب لابن عاد الحنبلي ١٢ / ١٦٣ .

وقد رخص الله ذلك رفقًا بعباده واعتبارًا للأشياء بغاياتها ومقاصدها [١] .

وهذا يعني أن (التقية) وإن كانت بابًا من أبواب التيسير والرحمة بالمؤمنين ، إلا أنها باب محفوف بالمخاطر ، لا يدخله الإنسان إلا على حذر وإشفاق ، وإلا ريثما يمسك نفسه من التلف .. فإن هـــذه

حال لا ينبغي أن يركن إليها المؤمن أو يطمئن إلى مقامه فيها ، إذ هو يلبس فيها ثوب النفاق ظاهرًا .. ولا يجتمع إيمان ونفاق أبدًا [٢] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٤ .

(٢) التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب ٧ / ٣٧٦ .

المطلـــب الثانـي
شرح الصدر بالكفر وعقوبته في القرآن الكريم

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا ﴾ أي : وسعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ، فهـو يرد على القدر ، و" صدرًا " نصب على المفعول ﴿ فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ وهو عذاب جهنم (١) .

قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا ﴾ أي: اعتقده ، وطابت به نفسه ، واطمأن إليه فعليهم غضب .

قال قتادة : من أتاه بإيثار واختيار . وقال ابن قتيبة : من فتح له صدره بالقبول . وقال أبو عبيدة المعنى : من تابعته نفسه ، وانبسط إلى ذلك ، يقال : ما ينشرح صدري بذلك أي ما يطيب ، وجاء قوله " فعليهم غضب " على معنى الجميع ، لن " مَن " تقع على الجميع (٢) .

وتقديم الخبر المجرور على المبتدأ للاهتمام بأمرهم ، فقدم ما يدل عليهم ، ولتصحيح الإتيان بالمبتدأ أنكره حين قصد بالتنكير التعظيم أي : غضب عظيم فاكتفى بالتنكير عن الصفة ، وأما تقديم لهم على عذاب عظيم فللاهتمام ، وأفرد الضمير في شرح (٣) .

---

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٤٤٩ .

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢ / ٥٨٧ .

(٣) تفسير البحر المحيط ٦ / ٥٩٩ ، وفتح القدير للشوكاني ٣ / ٢٣٥ .

واختير " فعليهم غضب " دون نحو : فقد غضب الله عليهم ، لما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات ، أي : غضب لا مغفرة معه [١] وإظهار الاسم الجليل في " من الله " لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب.

يقول الإمام ابن كثير في معنى الآيات : أخبر –تعالى– عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به ، أنه قد غضب عليه ، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة ؛ لأجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق ، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئًا ، فهم غافلون عما يراد بهم [٢] .

وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه .

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : ومنهم من أعطى المشركين بقلبه ما أعطاهم بلسانه .. فعاد كافرًا .. ودخل في الكفر في غير تحرج أو تأثم ، بل اطمأن إليه وشرح صدره له ! ولا شك أن هذه حال أثارت البلبلة والاضطراب في نفوس المسلمين ، وخاصة أولئك الذين انعقدت قلوبهم على الإيمان ، وإن صرحت ألسنتهم بالشرك ، تقية ، تحت حكم القهر والاضطرار .. فهم والحال كذلك يعانون

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٦٠٥ ، وتفسير ابن عطية ٣ / ٤٢٣ ، وتفسير أبي السعود ٥/ ١٤٣ .

من صراع حاد ، بين ظاهرهم هذا الذي يعيشون به في الناس ، وبين باطنهم الذي يعيشون فيه مع دينهم الذي أمسكوا به قلوبهم فكان من رحمة الله بالمؤمنين أن تقبل ما في قلوبهم وتجاوز لهم عما قالوا بأفواههم (١) .

و" لهم" أي: بظواهرهم وبواطنهم" عذاب عظيم " لارتدادهم على أعقابهم. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ في المشار إليه بذلك قولان : أحدهما : أنه الغضب والعذاب قاله مقاتل .

والثاني : أنه شرح الصدر بالكفر واكتفى البغوي بذكره للرأي الأول في المشار إليه .

وقال الزمخشري : ذلك إشارة إلى الوعيد وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة .

وقال أبو السعود : " ذلك " إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو إلى الوعيد المذكور" بانهم" بسبب أنهم . وقيل : إن الباء للتعليل فعلل عذابهم بعلتين أحدهما : إيثارهم الحياة الدنيا والأخرى أن الله لا يهديهم (٢) .

(وَأَنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي)إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر وإلجاء (الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) في علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدي إليه من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧ / ٣٧٦ .

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢ / ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، وتفسير البغوي ١ / ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٦٣٧ .

الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الأمرين إما إيثار الحياة الدنيا على الآخرة وإما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا ،أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثاني مخالف للحكمة والأول مما لا يدخل تحت الوقوع (١).

قال ابن عطية : وهذه الآية علق فيها العقاب بتكسبهم وذلك أن استحبابهم زينة الدنيا ولذات الكفر هو التكسب ، وقوله (وَأَنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي) إشارة إلى اختراع الكفر في قلوبهم ، ولا شك أن كفر الكافر الذي يتعلق به العقاب إنما هو باختراع من الله تعالى وتكسب من الكافر ، فجمعت الآية بين الأمرين ، وعلى هذا مرت عقيدة أهل السنة ، وقوله (لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) عموم على أنه لا يهديهم من حيث أنهم كفار في نفس كفرهم ، أو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي (٢) .

---

(١) تفسير أبو السعود ٥ / ١٤٣ .

(٢) تفسير ابن عطية ٥ / ٥٢٥ .

الفصل الثاني
ضيق الصدور وآثاره في القرآن الكريم

وفيه مبحثان

المبحث الأول
ضيق صدور الأنبياء بأعدائهم وأسبابه

وتحته مطلبان

المطلب الأول : ضيق صدر نبينا محمد ﷺ بأعدائه .

المطلب الثاني : ضيق صدر موسى – عليه السلام – بأعدائه .



المطلب الأول
ضيق صدر نبينا محمد ﷺ بأعدائه

قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) .

جملة " فلعلك تارك " مستأنفة ، " بعض" مفعول به لـ" تاركًا " و"ضائق " معطوف على " تارك " و" صدرك " فاعل ، الجار " به " متعلق بـ" ضائق " والمصدر المؤول " أن يقولوا " مفعول لأجله أي : كراهة ، " لولا " حرف تحضيض ، جملة " والله على كل شيء وكيل " مستأنفة لا محل لها (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ أي : فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه .

وقيل : إنهم لما قالوا (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) هم أن يدع سب آلهتهم فنزلت هذه الآية ، فالكلام معناه الاستفهام أي : هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سألوك ؟ وتأكد الأمر في الإبلاغ كقوله : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود آية : ١٢ .

(٢) المجتبي من مشكل إعراب القرآن ٢ / ٤٥٧ .

(٣) سورة المائدة آية : ٦٧ .

قال الطاهر بن عاشور : تفريع على قوله : ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ إلى قوله : ﴿يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) من ذكر تكذيبهم وعنادهم ويشير هذا التفريع إلى أن مضمون الكلام المفرع عليه سبب لتوجيه هذا التوقع ، لأن من شأن المفرع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأسًا قد يبعث على ترك دعائهم ، فلذلك كله أفيد بفاء التفريع .

والتوقع المستفاد من " لعل " مستعمل في تحذير من شأنه التبليغ ، ويجوز أن يقدر استفهام حذفت أداته ، والتقدير : ألعلك تارك ، ويكون الاستفهام مستعملاً في النفي للتحذير وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

والاستفهام : كناية عن بلوغ الحالة حدًا يوجب توقع الأمر المستفهم عنه حتى أن المتكلم يستفهم عن حصوله ، وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همة المخاطب وإلهاب همته لدفع الفتور عنه ، فليس في هذا تجويز ترك النبي (ﷺ) بعض ما يوحى إليه ، وذلك البعض هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث ، كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ (٣) والمعنى : تحذيره من التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم ، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب ، فالخطاب

---

(١) سورة هود آية : ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الشعراء آية : ٣ .

(٣) سورة الأعراف آية : ٢٠٣ .

مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه .

فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره ، ولا يهيدنه ذلك ولا يثنّينه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١) .

وقال هاهنا : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا) أي : لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عزوجل.

وضايق : اسم فاعل من ضاق ، وإنما عدل عن أن يقال " ضيق هنا إلى ضائق لمراعاة النظير مع قوله " تارك " لأن ذلك أحسن فصاحة ، ولأن ضائق لا دلالة فيه على تمكن وصف الضيق من صدره بخلاف " ضيق ، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف ، إيماء إلى أن أقصى ما يتوهم توقعه في جانبه (ﷺ) هو ضيق قليل يعرض له .

والضيق مستعمل مجازًا في الغم والأسف كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة (٢) .

---

(١) سورة الحجرات الآيات : ٩٧ – ٩٩ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٢ / ١٦ ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٣١٠ .

وقال القرطبي : وقيل معنى الكلام النفي استبعاد أي : لا يكون منك ذلك بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ، وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي(ﷺ) لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لأتيناك فهم النبي (ﷺ) أن يدع سب آلهتهم فنزلت .

والباء في " به " للسببية والهاء تعود على " ما " أو على بعض أو على التبليغ أو التكذيب .

وقال " ضائق " ولم يقل " ضيق " ليشاكل " تارك " الذي قبله ولأن الضائق عارض والضيق ألزم منه " لولا " أي : هلا . أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك " يصدقه " .

والكنز : المال المكنوز أي المخبوء وإنزاله إتيانه من مكان عال أي : من السماء وهذا القول صدر من المشركين قبل نزول هذه الآية ، فلذلك فالفعل المضارع مراد به تجدد هذا القول وتكرره منهم بقرينة العلم بأنه صدر منهم في الماضي وبقرينة التحذير من أن يكون ذلك سببًا في ضيق صدره ، لأن التحذير إنما يتعلق بالمستقبل وقائل ذلك هو عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي .

ومرادهم بـ " جاء معه ملك " أي يجيء ملك من الملائكة شاهدًا برسالته وهذا من جهلهم بحقائق الأمور وتوهمهم أن الله يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التأييد الرباني .

فقال الله تعالى : يا محمد " إنما أنت نذير" إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات ، وجملة " إنما أنت نذير" في موقع العلة للتحذير من تركه

بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم ، فكأنه قيل : لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضيق صدرك من مقالهم لأنك نذير لا وكيل على تحصيل إيمانهم ، حتى يترتب على يأسك من إيمانهم ترك دعوتك .

والقصر المستفاد من إنما : قصر إضافي، أي : أنت نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم ، إذ ليس ذلك بل هو لله كما دل عليه قوله قبله " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليه وضائق به صدرك " فهو قصر قلب وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أن الرسول يأتي بما يسأل عنه من الخوارق ، فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندًا لتكذيبهم إياه ردًا حاصلاً من مستتبعات الخطاب كما هَدَم عند قوله تعالى " فلعلك " وينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبي (ﷺ) بأن الله مطلع على مكر أولئك وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبي (ﷺ) جهده في التبليغ " والله على كل شيء وكيل " أي : حافظ وشهيد (١) .

ومن الآيات التي تحدثت عن ضيق صدر رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (٢) .

قال الفراء وغيره : " كتاب " رفعته بحروف الهجاء التي قبله كأنك قلت : الألف واللام والميم والصاد من حروف المقطع كتاب أنزل إليك مجموعًا .

فإن قلت : كأنك قد جعلت الألف واللام والميم والصاد يؤدين عن جميع

---

(١) تفسير القرطبي ٩ / ١٢ ، وتفسير التحرير والتنوير ١٢ / ١٧ ، ١٨ بتصرف .

(٢) سورة الأعراف آية : ٢ .

حروف المعجم وهو ثلاثة أحرف أو أربعة ؟ قلت كما أنك تقول : أ ب ث ثمانية وعشرون حرفًا فتكتفي بأربعة أحرف من ثمانية وعشرين.

فإن قلت : إن ألف ب ت ث قد صار كالاسم لحروف الهجاء كما تقول قرأت الحمد ، فصارت اسمًا لفاتحة الكتاب .

قلت : إن الذي تقول ليقع في الوهم ولكنك قد تقول : ابني في أ ب ت ث ولو قلت في حاط لجاز ولعلمت بأنه يريد : ابني في الحروف المقطعة ، فلما اكتفى بغير أولها علمنا أن أولها ليس لها باسم وإن كان أولها آثر في الذكر من سائرها .

فإن قلت : جاءت حروف (المص) و(كهعيص) مختلفة ثم أنزل منزل با تا ثا وهن متواليات ؟

قلت : إذا ذكرن متواليات دللن على أ ب ت ث بعينها مقطعة ، وإذا لم يأتين متواليات دللن على الكلام المتصل لا على المقطع .

قال القرطبي : القول في تأويل قوله تعالى ذكره " كتاب أنزل " قال أبو جعفر : يعني تعالى ذكره هذا القرآن يا محمد كناب أنزله الله إليك ورفع الكتاب بتأويل : هذا الكتاب أو ذلك وهو وجه (١) .

وكأنه إذا أضمر" هذا " أو" ذلك " أضمر لحروف الهجاء ما يرفعها لأنها لا تكون إلا ولها موضع القول في تأويل قوله تعالى " فلا يكن في صدرك حرج منه " .

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

قال أبو جعفر : يقول جل ثناؤه لنبيه محمد (ﷺ) : فلا يضيق صدرك يا محمد من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه .

ولا تشك في أنه من عندي واصبر للمضي لأمر الله واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة كما صبر أولوا العزم من الرسل فإن الله معك و" الحرج " هو الضيق في كلام العـرب ، وقد بينا معنى ذلك بشواهده [١] في قوله : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [٢] .

وقال ابن كثير : قوله تعالى " كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ " أي : هذا كتاب أنزل إليك ، أي : من ربك .

" فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ" قال مجاهد وقتادة والسدي وابن عباس : شك منه فالخطاب للرسول (ﷺ) والمراد به الأمة .

وقيل : لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به [واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل] ولهذا قال : " لتنذر به " أي : أنزل إليك لتنذر به الكافرين ، وذكرى للمؤمنين [٣] ، أي :على الكتاب . قال أبو جعفر : وهذا الذي ذكرته من التأويل عن أهل التأويل يقصد بذلك ما ذكره ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي في معنى " الحرج " لأن الشك فيه لا يكون إلا من ضيق الصدر به وقلة الاتساع لتوجيهه

(١) تفسير الطبري ١٢ / ٢٩٥ ومعاني القرآن للفراء ١ / ٣٦٩ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٧ .

وجهته الصحيحة ، وإنما اخترنا العبارة عنه بمعنى " الضيق " لأن ذلك هو الغالب عليه من معناه في كلام العرب كما بيناه قبل (١) .

ومن الآيات التي تحدثت عن ضيق الصدر في حق نبينا (ﷺ) قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢) .

يقول صاحب المعجم الوسيط : (ضيقًا) ضيقًا ، وضِيقًا : انضم بعضه إلى بعض فلم يتسع لما فيه ، وقصر عنه ، ويقال : ضاق صدره به تألم أو ضجر منه أو شق عليه وعجز عنه (٣) .

يقول الإمام القاسمي : لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون أعلمه بما يعلم سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون، لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك ، ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن ، وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير الطبري ١٢ / ٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣ / ١٨٠ .

(٢) سورة الحجر الآيات : ٩٧ – ٩٩ .

(٣) المعجم الوسيط ١ / ٥٤٨ .

(٤) سورة البقرة آية : ٤٥ .

(٥) سورة الرعد آية : ٢٨ .

والذكر تارة يكون باللسان وتارة بالقلب وتارة يكون بالقلب واللسان معًا وهو أفضل أنواع الذكر .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " (١) ، ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٤) .

أما قوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ) فهي آية تأنيس للنبي(ﷺ) وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يقلق ، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظًا بما يكره الإنسان .

ثم أمره تعالى بملازمة الطاعة وأن تكون مسلاته عند الهموم .

وقد روي في شمائله صلوات الله عليه أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة تأويلاً لما ذكر .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، ص١١٧٢ ، حديث رقم ٦٨٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٤) سورة النحل آية : ١٢٨ .

قال أبو السعود :والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والإشعار بعلة الحكم ، أعني الأمر بالتسبيح والحمد .

والمراد من " الساجدين " المصلين من إطلاق الجزء على الكل، و" اليقين" الموت فإنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق ، وإسناد الإتيان إليه ، للإيذان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه . والمعنى : دم على العبادة ما دمت حيًا ، كقوله تعالى : ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [1] .

روى الإمام أحمد بسنده عن نعيم بن همار أنه سمع رسول الله (ﷺ) قال الله : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره" [2] ، وقيل المراد بـ" اليقين " تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن إلا أن إرادة الموت منه أولى ، والدليل على أن اليقين الموت قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾ [3] .

وفي الصحيح عن أم العلاء (امرأة من الأنصار) ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله

---

(١) سورة مريم آية : ٣١ .

(٢) المسند ٥ / ٢٨٦ .

(٣) سورة المدثر الآيات : ٤٣ – ٤٧ .

عليك أبا السائب ! فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله (ﷺ) : " وما يدريك أن الله أكرمه " ؟ فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ فقال : " أما هو فقد جاءه اليقين ، وإني لأرجو له الخير "[١] .

ويترتب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدًا ، وقال : نويت يومًا أو شهرًا كانت له عليها الرجعة ولو قال طلقتها حياتها لم يراجعها[٢] .

ثم قال الله تعالى مسليًا لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٣] ، أي : لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين ، وعدم إيمانهم ، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير ، لم تأس ولم تحزن ، ولا يضيق صدرك ، ولا تقلق نفسك بمكرهم ، فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٤] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٦٨٧ ، واحمد ٢٧٤٥٧ ، والطبراني في الكبير ٣٣٨ ، والبيهقي ٧٢٩١ ، والحاكم ١٤٠١ من حديث أم العلاء .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١١٦ ، وتفسير القرطبي ١٢ / ٢٦٤ .

(٣) سورة النمل آية : ٧٠ .

(٤) سورة الأنفال آية : ٣٠ ويراجع تفسير السعدي ٦٢٢ .

المطلـــب الثانـــي

ضـيق صـدر موسـى عليه السلام بأعـــدائه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

قوله : (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) المصدر المؤول من " أن " وما بعدها مفعول به ، و" يكذبون " فعل مضارع منصوب بحذف النون ، والنون للوقاية ، والياء المقدرة مفعول به ، وجملة " يكذبون " صلة الموصول الحرفي لا محل لها .

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) جملة " ويضيق صدري " معطوفة على جملة " أخاف " وجملة " فأرسل " معطوفة على جملة " إني أخاف " .

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) جملة " ولهم علي ذنب " معطوفة على جملة " أخاف " المتقدمة الجار " على " متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ، وجملة " فأخاف " معطوفة على جملة " ولهم علي ذنب " والمصدر المؤول " أن يقتلون " مفعول به (٢) .

قوله تعالى " قال " يعني موسى " رب إني أخاف أن يكذبون " .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٢ – ١٤ .

(٢) المجتبي من مشكل إعراب القرآن ٣ / ٨٢٨ ، ٨٢٩ .

القــراءات القــرآنية :

قرأ يعقوب " وضيقَ " " ولا ينطلقَ " بنصب القافين على معنى وأن يضيق ،وقرأ العامة برفعهما ردًا [١] على قوله " إني أخافُ " وبين قوله " وضيق صدري " وقوله " ولا ينطلق لساني " مقابلة قوله تعالى : " فأرسل إلى هارون " ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة ويشد به عضدي والمفعول محذوف أي : ملكًا أو جبريل .

" ولهم علي ذنب " أي دعوى ذنب وهو قتل القبطي فأخاف أن يقتلون أي يقتلونني به [٢] .

قال الإمام الرازي : اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى – عليه السلام – بالذهاب إلى قوم فرعون ، طلب موسى – عليه السلام – أن يبعث معه هارون إليهم ، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى هذا السؤال وحاصلها : أنه لو لم يكن هارون ، لاختلف المصلحة المطلوبة من بعثة موسى - عليه السلام – وذلك من وجهين :

الأول : أن فرعون ربما كذبه ، والتكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة ، لأن عند ضيق القلب تنقبض

---

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي ، ص٢٦٠ ويراجع تفسير البغوي ٣ / ٤٦٣ .

(٢) التفسير المنير للزحيلي ١٩ / ١٢٧ ومحاسن التأويل للقاسمي ٧ / ٤٥٠ ، وتفسير ابن عطية ١ / ٧٨٧ .

الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب ، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان ، فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب للحبسة ، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان ، وأما هارون فهو أفصح لسانًا مني وليس في حقه هذا المعنى ، فكان إرساله لائقًا .

الثاني : أن لهم عندي ذنبًا فأخاف أن يبادروا إلى قتلي ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة ، واما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (١) .

وقال الألوسي : " قال " استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال موسى عليه السلام ؟ فقيل : قال متضرعًا إلى الله عز وجل " رب إني أخاف أن يكذبون " من أول الأمر " ويضيق صدري ولا ينطلق لساني " معطوفان على خبر إن فيفيد أن فيه عليه السلام ثلاث علل :

١ – خوف التكذيب. ٢ – ضيق القلب . ٣ – امتناع انطلاق اللسان .

واستظهر الألوسي ثبوت الأمرين الأخيرين في أنفسهما غير متفرعين على التكذيب ليدخلا تحت الخوف ، لكن قرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بنصب الفعلين عطفًا على يكذبون فيفيد دخولهما تحت الخوف ، ولأن الأصل توافق القراءتين .

قيل : إنهما متفرعان على ذلك كأنه قيل : رب إني أخاف تكذيبهم إياي

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٤ / ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

ويضيق صدري انفعالاً منه ولا ينطلق لساني من سجن اللكنة وقيد العي بانقباض الروح الحيواني .

والمراد : حدوث تلجلج اللسان له – عليه السلام – بسبب ذلك كما يشاهد في كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم فإن ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود ، هذا إن قلنا إن هذا الكلام كان بعد دعائه – عليه السلام – بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بإزالتها بالكلية .

أو المراد : ازدياد ما كان فيه – عليه السلام – إن قلنا إنه كان قبل الدعاء أو بعده لكن لم تزل العقدة بالكلية وإنما انحل منها ما كان يمنع من أن يفقه قوله – عليه السلام – فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة .

وقال بعضهم : لا حاجة إلى حديث التفرع بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على يكذبون كما في قراءة النصب ، وذلك بناء على ما جوزه البقاعي من كون أخاف بمعنى أعلم أو أظن ، فتكون أن مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد ما يفيد علمًا أو ظنًا ، ويلتزم على هذا كون أخاف في قراءة النصب على ظاهره (١) .

وعلى هذا فيكون الفعلان معطوفين على " يكذبون " في قراءة الجمهور بالرفع مع جواز العطف على" أخاف" فيكون التقدير: و" أخاف " أنه (٢) .

---

(١) لئلا تأبى ذلك ويدعى اتحاد المآل .

(٢) نظم الدرر ١٤ / ١٦ وتفسير المراغي ١٩ / ٥٠ .

وحكى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصب " يضيقَ " ورفع " ينطلقُ " والكلام في ذلك يعلم مما ذكر وأيا ما كان فالمراد من ضيق الصدر ضيق القلب وعبر عنه بها ذكر مبالغة ، ويراد منه الغم ، ثم هذا الكلام منه – عليه السلام – ليس تشبثًا بأذيال العلل والاستعفاء عن امتثال أمره عز وجل وتلقيه بالسمع والطاعة ، بل هو تمهيد عذر في استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، فإن ما ذكره ربما يوجب اختلال الدعوة وانتباذ الحجة، وقد تضمن هذا الاستدعاء قوله تعالى " فأرسل إلى هارون " كأنه قال أرسل جبريل – عليه السلام – إلى هارون واجعله نبيًا وآزرني به واشدد به عضدي ، لأن في الإرسال إليه – عليه السلام – حصول هذه الأغراض كلها على أكمل وجه ، لكن بسط في سورة القصص واكتفى هاهنا بالأصل عما في ضمنه .

ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع " فأرسل " معترضًا بين الأوائل [١] .

قال الشوكاني : وهذا من موسى – عليه السلام – من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه لا من باب الاستعفاء من الرسالة [٢] .

والرابعة : أعني " ولهم " إلخ فأذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لآخر وليس أمره بالإتيان مستلزمًا لما استدعاه – عليه السلام – وتقدير مفعول " أرسل " ما

---

(١) تفسير الألوسي ١٠ / ٦٥ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ١١١ .

أشرنا إليه قد ذهب إليه غير واحد ، وبعضهم قدر ملكًا إذ لا جرم في أنه – عليه السلام– كان يعلم إذ ذاك أن جبريل – عليه السلام – رسول الله – عز وجل – إلى من يستنبئه سبحانه من البشر.

وفي الخبر : أن الله تعالى أرسل موسى إلى هارون وكان هارون بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبيًا بالشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : أقبل موسى – عليه السلام إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً ، فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم في ليلة كانوا يأكلون الطفيشل (١) فنزلت في جانب الدار فجاء هارون – عليه السلام – فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه ، فلما قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت ؟ قال : أنا موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه ، فلما أن تعارفا قال له موسى : يا هارون انطلق معي إلى فرعون فإن الله تعالى قد أرسلنا ، قال هارون : سمعًا وطاعة فقامت أمهم فصاحت وقالت : أنشدتكما بالله تعالى أن لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما فأبيا فانطلقا إليه ليلاً ... الخبر (والله تعالى أعلم بصحته) .

" ولهم علي ذنب " أي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، أو سمي باسمه مجازًا بعلاقة السببية، والمراد به قتل القبطي خباز فرعون بالوكزة التي وكزها ، وقصته مبسوطة في غير موضع ، وتسميته ذنبًا : بحسب زعمهم بما

(١) نوع من المرق .

ينبئ عنه قوله تعالى لهم : فأخاف أن آتيتهم وحدي أن يقتلون بسبب ذلك ، ومراده – عليه السلام – بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها كما هو اللائق بمقام أولي العزم من الرسل – عليهم السلام – فإنهم يتوقون لذلك – كما كان يفعل – (ﷺ) حتى نزل عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [١] ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافي مقامهم .

وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء [٢] .

(١) سورة المائدة آية : ٦٧ .

(٢) تفسير الألوسي ١٠ / ٦٥ ، ٦٦ بتصرف ، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ١١١ .

المبحـــث الثانـــي

تضـييق الله صـدور الكافـرين عن الإسـلام

وفيه

المطلـب الأول : مفهوم الإضلال في القرآن الكريم

المطلب الثاني : تضييق الصدور وآثاره في القرآن الكريم

المطلـــب الأول

مفهوم الإضلال في القرآن الكريم

الضلالة لغة : الضياع ، والجور عن القصد ، وهو ضد الهدى .

قال صاحب المعجم الوسيط : (الضلال) الغياب ، و- الهلاك و- الباطل ، و- النسيان ، و- العدول عن الطريق المستقيم عمدًا أو سهوًا ، كثيرًا أو قليلاً ، ويقال: الضّلال ابن التّلال: مجهول لا يعرف أبوه، أو لا يدري من هو وممن هو(١) .

قال ابن فارس : " ضل " الضاد واللام أصل صحيح يدل على معنى واحد ، وهو : ضياع الشيء وذهابه في غير حقه ، يقال : ضَلَّ يَضِل ويُضَلُّ لغتان ، وكل جائز عن القصد ضال ، والضلال والضلالة بمعنى ، ورجل ضَليلُ ومُضَلَل : إذا كان صاحب ضلال وباطل ، ومما يدل على أن أصل الضلال ما ذكرناه قولهم : أَضَلَّ الميت إذا دُفن ، وذاك كأنه شيء قد ضاع "(٢) .

ونقيض الضلال الهدى ، وقد استعملته حسيًا في الصخرة الناتئة في الماء يؤمن بها العثار : وفي وجه النهار ، يكشف معالم الطريق فيؤمن الضلال .

ثم جاء الاستعمال المعنوي للضلال والهدى، ملحوظًا فيهما الأصل الحسي ، والاستعمال في المصطلح الديني للضلال والهدى بمعنى الكفر والإيمان ، وقوى هذا الاستعمال الاصطلاحي حتى كاد يكون هو المتبادر عند الإطلاق :

---

(١) المعجم الوسيط ١ / ٥٤٣ ، والمفردات ٢٩٩ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٣٥٦ .

ألم تسـأل فتخـبرك الـديار عـن الحـي المضـال أيـن سـاروا

والقرآن الكريم قد استعمل الضلال بمعنى الكفر والباطل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ (١) ، مع بقاء الملحظ الحسي اللغوي الذي هو ضلال الطريق ، بدليل اقتران الضلال بالسبيل ، عشرين مرة ، ومعها آية السجدة ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) .

ويؤيد هذا الملحظ ،استعمال العمى في الضلال في آية النمل : ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ (٣) ، وفي آية الإسراء ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٤) .

إطلاقات الضلال في القرآن :

ويطلق الضلال في القرآن ويراد به ثلاثة إطلاقات :

قال الشنقيطي :وقد بينا مرارًا في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرآن في اللغة العربية ثلاثة إطلاقات : الإطلاق الأول : يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء ، فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء :

---

(١) سورة يونس آية : ٣٢ ويراجع تفسير القرطبي ١ / ٢٣٢ .

(٢) سورة السجدة آية : ١٠ .

(٣) سورة النمل آية : ٨١ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٧٢ .

ضل عنه ، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما وليس من الضلال في الدين .

ومن هذا المعنى قوله هنا : ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (١) أي : من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي ، لأني في ذلك الوقت لم يوح إليّ ومنه على التحقيق ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ (٢) أي : ذاهبًا عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي. الإطلاق الثاني : وهو المشهور في اللغة وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر ، وعن طريق الحق إلى الباطل وعن طريق الجنة إلى النار ، ومنه قوله تعالى : ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (٣) .

الإطلاق الثالث : هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال ، تقول العرب : ضل الشيء : إذا غاب واضمحل ، ومنه قولهم : ضل السمن في الطعام : إذا غاب فيه واضمحل ، ولأجل هذا سمّت العرب الدفن في القبر إضلالاً ، لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (٤) ، يعنون : إذا دفنوا وأكلتهم الأرض فضلوا فيها ، أي :

(١) سورة الشعراء آية : ٢٠ .

(٢) سورة الضحى آية : ٧ .

(٣) سورة الفاتحة آية : ٧ .

(٤) سورة السجدة آية : ١٠ .

غابوا فيها واضمحلوا " [١] .

وذكر الزمخشري وأبو حيان في تفسير الضلال ، أن سيدنا محمدًا ، ضل في شعاب مكة وهو صغير فرده الله إلى جده ، وقيل : ضلاله من حليمة مرضعته ، وقيل : ضل في طريق الشام .

واستطرد أبو حيان يقول : إنه فكر طويلاً في هذه الآية غير مطمئن إلى أقوال المفسرين فيها ، وشغل باله في منامه ، فإذا به يقول : " وجدك ضالاً فهدى " أي: وجد رهطك ضالاً فهداه بك على حذف المضاف ، أي : رهط ، ونظيره عنده قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [٢] أي: أهلها [٣] .

وما بنا حاجة إلى كل هذه التأويلات ، ما ذكرنا منها وما لم نذكر بل يكفي في الرد على من فسروا الضلال بالكفر أن الاستعمال القرآني لا يلتزم دائمًا هذا المعنى الاصطلاحي ، وإنما لحظ فيه – كما رأينا – الأصل اللغوي من ضلال الطريق ، أو عدم الاهتداء إلى الصواب .

قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [٤] .

---

(١) أضواء البيان ٦ / ٩٠ .

(٢) سورة يوسف آية : ٨٢ .

(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١٢ / ٨٣٢٦ ومعاني القرآن للفراء ٥ / ٢٦٨ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ٤ / ٧٦٨ .

(٤) يوسف آية : ٩٥ .

وقالوا : ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (١) وليس الضلال هنا كفرًا ، وإنما هو الشغف بيوسف ، وقالت النسوة في امرأة العزيز ويوسف : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) .

وفي آية الشعراء حكاية عن موسى : ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ (٣) .

وفي شهادة رجل وامرأتين على الدين بآية البقرة : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ (٤) .

وليس شيء من هذه الآيات بالذي يحمل الضلال فيه ، على معناه الاصطلاحي وهو الكفر ، فالاحتكام إلى القرآن نفسه يعفينا من التزام المصطلح في لفظ الجلالة بمعنى الكفر ، وغريب عندنا كذلك أن نتصور أن الله مَنَّ على رسوله ، بأن رده إلى أهله حين ضل في شعاب مكة ، أو عند حليمة ، أو في طريق الشام !

روى أبو الضحى عن ابن عباس:أن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكةوهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفًا من أغنامه فرده إلى عبد المطلب (٥) وفي الكشاف : أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد

(١) يوسف آية : ٨ .

(٢) يوسف آية : ٣٠ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٢٠ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٥ / ٢٦٨ .

المطلب ، وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب (١) ، وإن من صغار الأطفال من يضل فيرده إلى أهلهم رادٌّ، ربما كوفئ ببضعة دراهم (حلاوة) نظير معروفه ! (٢) .

قال الإمام السعدي في معنى قوله تعالى(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعلمك ما لم تكن تعلم ، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق (٣) .

وقال الرازي : اعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافرًا في أول الأمر ، ثم هداه الله وجعله نبيًا ، وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه – عليه السلام – ما كفر بالله لحظة واحدة (٤) .

الفرق بين الضلال والغي :

قال الكفوي : الضلال يكون في مقابلة الهدى والغي في مقابلة الرشد والضلال : ألا يجدك السالك إلى مقصده طريقًا أصلاً والغواية : ألا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم (٥) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٤ / ٧٦٨ .

(٢) التفسير البياني ١ / ٤٥ ، ٤٦ بتصرف .

(٣) تفسير السعدي ص ٩٦٠ .

(٤) مفاتيح الغيب للرازي ٣١ / ١٩٧ .

(٥) بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي ٣ / ٤٨١ .

وقد قال بعض العلماء : إذا رأيت أحدًا على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدًا عليه يوم القيامة .

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١) : ونسب إلى الأصنام أنها أضلت كثيرًا من النار – تجوز- إذ كانت عرضة الإضلال ، والأسباب المنصوبة للغي ، وعليها تنشأ الأغيار ، وحقيقة الإضلال إنما هي لمخترعه وقيل : أراد بالأصنام هنا الدنانير والدراهم (٢) .

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٣٦ .

(٢) تفسير ابن عطية ٣ / ٣٤١ .

المطلب الثاني

تضييق الصدور وآثاره في القرآن الكريم

يقول الله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [١] .

قال صاحب المعجم الوسيط : " الحرج " : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها،و– من النوق : الضامرة . و– المكتنزة الجسيمة و– الشديد الضيق .

وفي التنزيل العزيز : (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) و– الإثم ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [٢] ويقال : " حدّث عنه ولا حرج " : ولا بأس عليك [٣] .

الإعـراب :

المصدر الأول " أن يهديه " مفعول " يرد " " جردًا " مفعول به متعدد فكما يجوز تعدد الخبر الصريح يجوز تعدد ما أصله كذلك وجملة " كأنما يصعد " حالية من الضمير في " حرجًا " ، و" كأنما " كافة ومكفوفة لا عمل لها ، وجملة " يجعل " مستأنفة [٤] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٢) سورة الفتح آية : ١٧ .

(٣) المعجم الوسيط ١ / ١٦٤ .

(٤) المجتبي من مشكل إعراب القرآن الكريم ١ / ٢٩٤ .

لقد تحدث عن هذه الآية الكريمة فيما سبق ، ولي وقفة مع قوله تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

معنى " يضله " يغويه .

قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء (١) والأكثرون " ضَيِّقًا " بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهيّن .

وقرأ بعضهم " حَرِجًا " بفتح الحاء وكسر الراء (٢) قيل بمعنى آثم قاله السدي . وقيل : بمعنى القراءة الأخرى " حَرَجًا " بفتح الحاء والراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه ، وهما لغتان مثل الدَّنَف والدنف .

وقد سأل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مُدْلج : ما الحرجة ؟ قال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ، ولا وحشية ، ولا شيء ، فقال عمر رضي الله عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

وقال العوفي عن ابن عباس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقًا ، والإسلام واسع . وذلك حين يقول : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٣) يقول : ما جعل

---

(١) هذه قراءة ابن كثير قرأ بالتخفيف هنا وفي الفرقان .

(٢) هذه قراءة أهل المدينة (نافع وأبي بكر وأبي جعفر) .

(٣) سورة الحج آية : ٧٨ .

عليكم في الإسلام من ضيق .

وقال ابن عباس : إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه ، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك . وقال مجاهد والسدي : " ضيقًا حرجًا " شاكًا . وقال عطاء الخراساني والكلبي : " ضيقًا حرجًا " ليس للخير فيه منفذ . وقال ابن المبارك عن ابن جريج " ضيقًا حرجًا " بلا إله إلا الله ، حتى لا تستطيع أن تدخله ، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه .

وقال سعيد بن جبير : " يجعل صدره ضيقًا حرجًا " قال : لا يجد فيه مسلكًا إلا صعدًا ووزن " ضَيّق " فيعل كميت وسيد عند جمهور النحويين ثم أدغم .

وقال السدي : " كأنما يصعد في السماء" من ضيق صدره كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام .

وقال عطاء الخراساني : " كأنما يصعد في السماء " يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء .

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس : " كأنما يصعد في السماء " يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه ، حتى يدخله الله قلبه (١) ، ويجوز- والله أعلم – أن يكون كأن قلبه يصعد في السماء نبوا على الإسلام واستماع الحكمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، وتفسير البغوي ٢ / ١٥٨ ، والدر المصون ٥/ ١٤١ .

وقال الأوزاعي : " كأنما يصعد في السماء " كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا ؟

وقال الفراء : ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد في السماء وليس يقدر.

التفسير العلمي للآية الكريمة :

آية محكمة تشير بكل وضوح وصراحة إلى حقيقتين كشف عنهما العلم الحديث :

الأولى : إن التغير الهائل في ضغط الجو الذي يحدث عند التصاعد السريع يسبب للإنسان ضيقًا في الصدر وحرجًا .

الثانية : أنه كلما ارتفع الإنسان في السماء انخفض ضغط الهواء وقلت بالتالي كمية الأوكسجين مما يؤدي إلى ضيق في الصدور وصعوبة في التنفس ، ففي عام ١٦٤٨م أثبت العالم المشهور " بليز باسكال " أن ضغط الهواء يقل كلما ارتفعنا عن مستوى سطح البحر .

هذا ومن المسلم به أن الإنسان في عهد النبي (ﷺ) لم يكن على آية معرفة بتغير الضغط وقلته كلما ارتفع في الفضاء ، وأن ذلك يؤدي إلى ضيق في التنفس بل إلى تفجير الشرايين عند ارتفاعات شاهقة .

ومع ذلك ، فإن الآية الكريمة تشير صراحة إلى أن صدر الإنسان يضيق إذا تصاعد في السماء ، وأن هذا الضيق يشتد كلما ازداد الإنسان في الارتفاع إلى أن يصل إلى أشد الضيق وهو معنى " الحرج " في الآية كما فسره علماء اللغة ، ولقد عبرت

الآية عن هذا المعنى بأبلغ تعبير في قوله تعالى " كأنما يصعد " إذ إن أصلها " يتصعد " قلبت التاء صادًا ثم أدغمت في الصاد فصارت يصعد ومعناه أنه يفعل صعودًا بعد صعود .

فالآية لم تتكلم عن مجرد الضيق الذي يلاقيه في الجو ، المتصاعد في السماء فقط ، وإنما تكلمت أيضًا عن ازدياد هذا الضيق إلى أن يبلغ أشده ، فسبحان من جعل سماع آياته لقوم سبب تحيرهم ، ولآخرين موجب تبصرهم ، وسبحان من أعجز بفصاحة كتابه البلغاء ، وأعيى بدقائق خطابه الحكماء ، وأدهش بلطائف إشاراته الألباء ، وسبحان من أنزل على عبده الأمي ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) .

وجاء في الموسوعة الأميركية ما ترجمته : يجب على الطائرة إذا كانت على علو شديد الارتفاع أن تحافظ على مستوى من الضغط الداخلي لحماية الركاب ، فإن الضغط الجوي في تلك الارتفاعات يكون أدنى بكثير من الحد المطلوب لتأمين الأوكسجين الكافي لبقاء الركاب على قيد الحياة كما أن التغير السريع في الضغط الجوي الناتج عن تغير الارتفاع يؤدي إلى انزعاج جسدي حاد ، هذه الحالة سببها ارتفاع نسبة النيتروجين في الدم عند الانخفاض السريع في الضغط " .

وجه الإعجاز :

وجه الإعجاز في الآية القرآنية هو دلالة لفظ " يصعد " على الارتفاع في السماء يسبب ضيقًا في التنفس ، وهو ما كشفت عنه دراسات علم الفلك في عصرنا (٢) .

---

(١) سورة فاطر آية : ٢٨ .

(٢) مجلة الشرق العدد ١٢٨٦ ص ٢٣ ، ١٥ – ٢١ أكتوبر ٢٠٠٥م ١٢ – ١٨ رمضان ١٤٢٦هـ .

وقال صاحب الإعجاز البياني : يختار هذه الآية لفيف من العلماء الذين درسوا الإعجاز العلمي في القرآن وذلك بعدما كشف العلم الحديث عن تأثير الضغط الجوي في أجهزة الإنسان الداخلية ، والله سبحانه جعل هذا الضغط داخل الجسم البشري يتناسب مع ما يحيط به ، ومن هنا يعيش الإنسان على هذه الأرض على نحو مريح له .

ومع تواصل الوسائل الحديثة للارتفاع العالي في طبقات السماء ، لمس العلماء ما يرافق ذلك من ضيق شديد في الصدر ، وآلام في الجهاز العصبي ومع زيادة الارتفاع يزداد الخلل في أجهزة الإنسان الداخلية وتستحيل الحياة لانخفاض الضغط الجوي، وفقد غاز الأوكسجين، واضطراب الوزن ، ونظام الدورة الدموية.

هذه هي الحالة التي يشبه بها القرآن الكريم حالة من يضيق صدره بالهداية ، فهي تشبه حالة من يصعد في السماء فينتابه الإحساس بالضيق والاختناق والاضطراب [١] .

والرجس : كما قال مجاهد : كل ما لا خير فيه ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم :العذاب ، باعتبار أنه الفعل المؤدي إلى الرجس من الارتجاس وهو الاضطراب .

وقال الزمخشري : الرجس يعني الخذلان ومنع التوفيق [٢] .

---

(١) الإعجاز البياني : أ.د / أحمد محمد الخراط ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٦٤ والتفسير المنير ٨ / ٣٩ ، ٤٠ .

وقال النسفي : " كذلك يجعل الله الرجس " العذاب في الآخرة ، واللعنة في الدنيا " على الذين لا يؤمنون " والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة المعاصي . والمعنى : أي : مثل قصصنا عليك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (١) .

ومن الآيات التي تحدثت عن ضيق الصدور أيضًا قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٢) .

يقول الإمام السعدي : ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق ، أو تكليف ما يشق ، احترز منه بقوله : " وما جعل عليكم في الدين من حرج " أي : مشقة وعسر ، بل يسره غاية التيسير ، وسهله بغاية السهولة ، فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس ، لا يثقلها ،ولا يؤودها ، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف ، خفف ما أمر به ، إما بإسقاطه ، او إسقاط بعضه ، ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية وهي أن " المشقة تجلب التيسير " و" الضرورات تبيح المحظورات " فيدخل في ذلك من الأحكام الفروعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام .

---

(١) تفسير النسفي ١ / ٥٣٦ ، وتفسير القرطبي ٧ / ٨٣ .

(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

وقال ابن كثير في قوله " وما جعل عليكم في الدين من حرج " : أي ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا ، فالصلاة – التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين – تجب في الحضر أربعًا وفي السفر تقصر إلى ثنتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث ، وتصلى رجالاً وركبانًا ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وكذا النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها ، والقيام فيها يسقط بعذر المرض ، فيصليها المريض جالسًا، فإن لم يستطع فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات (١) .

روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال : " بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا " (٢) .

" ملة أبيكم إبراهيم " أي : هذه الملة المذكورة ، والأوامر المزبورة ، ملة أبيكم إبراهيم ، التي مازال عليها ، فالزموها واستمسكوا بها " هو سماكم المسلمين من قبل " أي : في الكتب السابقة مذكورون ومشهورون .

"وفي هذا " أي هذا الكتاب ، وهذا الشرع أي : مازال هذا الاسم قديمًا

---

(١) تفسير السعدي ص ٥٥٣ ، وتفسير ابن كثير ٥ / ٤٥٥ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم كتاب الجهاد باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ص٧٦٩ حديث رقم ٤٥٢٥ .

وحديثًا " ليكون الرسول شهيدًا عليكم " بأعمالهم خيرها وشرها .

" وتكونوا شهداء على الناس " لكونكم خير أمة أخرجت للناس ، أمة وسطًا عدلاً خيارًا . تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم ، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه .

" فأقيموا الصلاة " بأركانها وشروطها ، وحدودها وجميع لوازمها " وآتوا الزكاة " المفروضة لمستحقيها شكرًا لله ، على ما أولاكم . " واعتصموا بالله " أي : امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك ، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم .

" هو مولاكم " الذي يتولى أموركم ، فيدبركم بحسن تدبيره ، ويصرفكم على أحسن تقديره .

" فنعم المولى ونعم النصير " أي : نعم المولى لمن تولاه ، فيحصل له مطلوبه . " ونعم النصير " لمن استنصره فدفع عنه المكروه [١] .

ع

---

(١) تفسير السعدي ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

فقد وصلت إلى نهاية بحثي الذي جاء بعنوان [التوازن النفسي في القرآن الكريم من خلال حديثه عن شرح الصدور وضيقها] .

وقد توصلت في هذه البحث إلى النتائج الآتية :

١ – الله عز وجل شرح صدر رسوله (ﷺ) بدون طلب .

٢ – طلب سيدنا موسى – عليه السلام – من ربه أن يشرح صدره .

٣ – طلب سيدنا موسى – عليه السلام – من ربه إرسال أخيه هارون مصدقًا له ومؤيدًا .

٤ – من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

٥ – من أسباب شرح الصدر التنزه عن ذميم الصفات ومقبوح الأخلاق .

٦ – العبد المؤمن محتاج في كل وقت وحال إلى الله في تثبيته على الهداية وازدياده منها

٧ – بيان أن المشركين ليسوا أهلاً للإيمان وغير مستعدين لقبوله .

٨ – من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فلا شيء عليه .

٩ – ليس اليقين من أسماء الموت وإنما العلم به يقين لا يمترى فيه عاقل .

١٠ – التكليفات التي كلفنا الله تعالى بها كلها سهلة ميسرة .



التوصيات :

أوصي الباحثين في الدراسات القرآنية بضرورة البحث عن جواهر القرآن الكريم ودرره لأنها لا تتناهى .

أسأل الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفعني به وعموم المسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلي الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهـرس المصـادر والمراجـع

١ – القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

٢ – أحكام القرآن : ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله ، ط : دار الفكر .

٣ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : العمادي : أبو السعود محمد بن محمد ، الناشر : دار إحياء التراث العربي .

٤ – أسباب النزول : الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد ، ط : مكتبة المتنبي .

٥ – أصول في التفسير : العثيمين : محمد بن صالح ، ط : دار ابن الجوزي .

٦ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، مكتبة البحوث والدراسات ، ط : دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ١٤١٥هـ .

٧ – البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة ويليه القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب . القاضي : عبد الفتاح ، ط : دار الكتب العلمية .

٨ – التفسير البياني: للدكتورة : عبد الرحمن: عائشة، ط: دار المعارف.

٩ – تفسير البحر المحيط : الأندلسي : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين المتوفي ٧٤٥ هـ .الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة ١٤٢٠هـ.

١٠ – تفسير آيات الأحكام : أ.د / زلط : القصبي ، ط : دار الصحابة للتراث بطنطا .

١١ – تفسير البغوي : البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء المتوفي ٥١٠ هـ ، تحقيق عبد الرازق المهدي . الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٢ – تفسير البيضاوي : البيضاوي : ناصر الدين محمد الشيرازي المتوفي ٧٩١هـ تحقيق د. حمزة النشرتي .

١٣ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : السعدي : عبد الرحمن بن ناصر، ط : دار الغد العربي .

١٤ – تفسير التحرير والتنوير : ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر المتوفي ١٣٩٣هـ ، الناشر : الدار التونسية للنشر ، سنة ١٩٨٤م .

١٥ – التيسير في القراءات السبع : الداني : أبي عمر عثمان سعيد ، ط : دار الكتب .

١٦ – جامع البيان في تأويل آي القرآن : أبو جعفر الطبري : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي المتوفي سنة ٣١٠هـ ، المحقق أحمد محمد شاكر ، الناشر : مؤسسة الرسالة .

١٧ – الإعجاز البياني : أ.د الخراط : أحمد بن محمد ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

١٨ –المجتبي من مشكل إعراب القرآن : أ.د الخراط : أحمد بن محمد ، ط : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

١٩ – الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن. القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، ط : مؤسسة الرسالة .

٢٠ – جامع الترمذي : الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ٢٠٠ – ٢٧٩هـ ، ط : دار السلام للنشر والتوزيع .

٢١ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : السمين الحلبي : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدايم ، المحقق د. أحمد محمد الخراط ، الناشر: دار القلم دمشق .

٢٢ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور : السيوطي : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣ م .

٢٣ – روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه : المقدسي : موفق الدين عبد الله ابن أحمد بن قدامة ، راجعه وأعد فهارسه سيف الدين الكاتب ، ط : دار الكتاب العربي .

٢٤ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : الآلوسي : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني المتوفي ١٢٧٠هـ المحقق علي عبد الباري عطية ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت .

٢٥ – تفسير الراغب : الأصفهاني : أبو القاسم الحسين بن محمد المتوفي سنة ٥٠٢هـ تحقيق : د. محمد عبد العزيز بسيوني ، الناشر: كلية الآداب جامعة طنطا

٢٦ – التفسير المنير : د. الزحيلي : وهبة ، ط : دار الفكر المعاصر دمشق الطبعة الثانية ١٤١٨هـ .

٢٧ – زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد المتوفي ٥٩٧هـ ، المحقق : عبد الرازق المهدي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

٢٨ – التسهيل لعلوم التنزيل : الغرناطي : أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي المتوفي ٧٤١هـ ، المحقق : د. عبد الله الخالدي ، الناشر : دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .

٢٩ – شعب الإيمان : البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ سنة ١٤٢٧هـ.

٣٠ – الشفا بتعريف حقوق المصطفى : عياض : القاضي ، ط : دار الكتب العلمية .

٣١ – صفوة التفاسير : الصابوني : محمد علي ، الناشر : دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٣٢ – صحيح البخاري : البخاري الجعفي:أبو عبد الله محمد بن إسماعيل١٩٤-٢٥٦هـ ط : دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

٣٣ – صحيح مسلم بشرح النووي : النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري ، ط : دار إحياء التراث العربي .

٣٤ – صحيح مسلم : النيسابوري: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ٢٠٤- ٢٦١هـ ط : دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

٣٥ – التفسير المظهري : التونسي : محمد ثناء الله ، المحقق غلام نبي مكتبة الرشدية الباكستان ، الطبعة ١٤١٢هـ .

٣٦ – فتح الباري شرح صحيح البخاري : العسقلاني : الحافظ بن حجر ، ط : المكتبة السلفية بالقاهرة .

٣٧ – فقه الأمر بالمعروف منتقى من كتاب (إحياء علوم الدين) : الغزالي : أبو حامد ، ط : دار الأندلس الخضراء .

٣٨ – فتح القدير : الشوكاني اليمني : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله المتوفي ١٢٥٠هـ ، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ، دمشق بيروت .

٣٩ – تفسير القرآن العظيم : الدمشقي : الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ٧٠٠ – ٧٧٤هـ ، ط : دار طيبة .

٤٠ – التفسير القرآني للقرآن : الخطيب : عبد الكريم يونس المتوفي ١٣٩٠هـ ، الناشر : دار الفكر العربي – القاهرة .

٤١ – المقبول من أسباب النزول : د. الأزهري : أبو عمر نادي بن محمود حسن ، ط ١٩٩٧م .

٤٢ – مقاييس اللغة : ابن زكريا : أبو الحسين أحمد بن الفارسي ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل – بيروت ، لبنان ، ط٢ سنة ١٤٢٠هـ .

٤٣ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله المتوفي ٥٣٨ هـ ، الناشر: دار الكتاب العربي ، ط ٣ سنة ١٤٠٧هـ.

٤٤ – لسان العرب : المصري : أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي ، ط : دار صادر .

٤٥ – اللباب في علوم الكتاب : النعماني : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي ، المحقق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمود معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

٤٦ – لطائف الإشارات لفنون القراءات : القسطلاني : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ، تحقيق مركز الدراسات القرآنية .

٤٧ – محاسن التأويل : القاسمي : محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق المتوفي ١٣٣٢هـ ، المحقق : محمد باسل عيون السود ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

٤٨ – معاني القرآن : الفراء : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي المتوفى ٢٠٧هـ ، المحقق : أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، الناشر : دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر .

٤٩ – مفاتيح الغيب = التفسير الكبير : الرازي : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين المتوفى ٦٠٦هـ الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ .

٥٠ – معاني القرآن وإعرابه : الزجاج :إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق المتوفى٣١١هـ المحقق عبد الجليل عبده شلبي ، الناشر: عالم الكتب – بيروت .

٥١ – المحيط في اللغـة : الطالقاني : الوزير الصاحب بن عباد المتوفي ٣٨٥هـ تحقيق : محمد علي عثمان ، توزيع مكتبة عباس أحمد البار مكة المكرمة .

٥٢ – مختار الصحاح : الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ط : دار الغد العربي

٥٣ – مفردات ألفاظ القرآن : الأصفهاني : الراغب تحقيق : عدنان داوودي ، دار القلم دمشق سوريا ، بيروت ، لبنان ، ط ١ سنة ١٤١٢هـ .

٥٤ – تفسير المنار ، تفسير القرآن الحكيم : الحسيني : محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني المتوفي ١٣٥٤هـ الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠م .

٥٥ – تفسير المراغي : المراغي: أحمد بن مصطفى الناشر:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأولى ١٤٦٥هـ / ١٩٤٦م .

٥٦ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ابن عطية الأندلسي المحاربي : محمد بن عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المتوفى ٥٤٢هـ المحقق عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٥٧ – مختصر زاد المعاد : لابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أيوب ، تحقيق : عبده عباس الوليدي ، ط : مكتبة المجد المنصورة .

٥٨ – مسند الإمام ابن حنبل : أحمد ، ط : دار صادر .

٥٩ – مفتاح دار السعادة : لابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أيوب ، تحقيق : عبد الرحمن بن حسن بن قائد ، دار عالم الفوائد .

٦٠ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : البقاعي : إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر ، المتوفي سنة ٨٨٥هـ - الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة .

٦١ – النكت والعيون (تفسير الماوردي) : الماوردي البصري : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان .

٦٢ – تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) : النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين المتوفي ٧١٠هـ ، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي ، الناشر : دار الكلم الطيب – بيروت .

٦٣ – الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء : السيوطي : جلال الدين ، تحقيق محي الدين مستو ، دار ابن كثير دمشق ومكتبة دار التراث بالمدينة المنورة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٦٤ – صفات النبي (ﷺ) في القرآن الكريم : العمودي : إيمان بنت عبد الله بن عمر ، ط : دار التوحيد للنشر .

□

فهــرس الموضـــوعات